عدد خاص
العدد الثامن، نيسان ٢٠٢٠

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
AL - MAAREF ISLAMIC CULTURAL ASSOCIATION

الرصد الثقافي

نشرة داخلية دورية تعنى برصد القضايا والأخبار الثقافية

سلسلة مقالات ودراسات حول:

جائحة كورونا

التداعيات الثقافية والاجتماعية

إعداد: مركز المعارف للدراسات الثقافية ٢٠٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة

أثبت الوقائع مجدّدًا، أنَّ خير البشر وشرّهم يخرج من أفواهم، وفيما اتّفقت البيولوجيا على أنَّ الأنفاس هي المصدر الأساس لانتقال هذا الوباء الذي يجتاح العالم (COVID-19)، تباينت الأيديولوجيَّات في قراءة تداعيات ما يُحدِثه هذا الوباء على المستويات الثقافيَّة والاجتماعيَّة.

يستوقف الراصد حجم ما تبوح به الكتابات الاستراتيجيَّة التي تتدفَّق تباعًا فيما يُشبه التسابق مع الوباء في سرعة انتشاره واتّساع مجالاته، وهذا ما يثير الفضول العلميّ للوقوف على حقيقة فَوَران تلك الأفكار والرؤى والتصورات، فهل هي وليدة ما نشهده من حدث بيولوجيّ لم يكد يمرّ على ظهوره إلَّا القليل من الزمن؟ أم هي نتاج تراكمات معرفيَّة لمتغيّرات يشهدها العالم؛ كانت تنتظر الفرصة التاريخيَّة للبوح والإعلان ووجدت في هذا الوباء ضالّتها؟

من المؤكَّد أنَّ الترف الفكريّ ليس من أملى هذا الطرح، ومن ثمّ الشروع برصد الكتابات الاستراتيجيَّة ذات الصلة، ووضعها بتصرّف أهل الفكر والبصيرة، بل لأنّ هذه الكتابات حوت قراءات جديرة بالتوقّف عندها مليًّا. فهذا الفايروس الذي فرض نفسه كضيف ثقيل، أقلق أعظم الدول وأصغرها، على الرغم من صغر حجمه الذي يستحيل للعين المجرَّدة أن تراه، تكاد الكتابات تُجمع على أنَّه لن يكتفي باستهداف الإنسان في جسده، بل إنّ فاهه المتناهي في صغره سينال من كبرى الإنجازات الاقتصاديَّة، وسيعبث بمنظومات اجتماعيَّة سائدة، حتَّى أنَّ البعض قد ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث ستمتدّ أنيابه لتنهش مرتكزات أساسيّة لأيديولوجيَّات كانت في الأمس القريب تجعل من نفسها النموذج الأرقى للبشريَّة، بوصفها نهاية التاريخ.

إنّ هذه الكتابات ليست خيالات وتصورات مجرَّدة، بل إنّ الوقائع التي تضج بها التقارير الإخباريَّة عبر الشاشات ووسائل التواصل الاجتماعيّ، قد ألهمتها وفرضت نفسها على الوعي الإنساني لما كشفته من مشهديَّات صارخة بوضوحها وقساوتها. فالدول التي كانت بالأمس القريب جدًّا توسم بأنَّها رهينة قيادات متخلّفة ينعدم لديها الميل لأهميَّة الإنسان وحقوقه، وأنَّ ثقافتها تجنح نحو تغليب الموت على الحياة، فإذ بها، أمام ما أحدثه هذا الوباء من تهديد جائح للإنسان، تُقدِّم أروع مثال عن التكافل والتعاضد مع آلام المتعبين في صحتهم وأرزاقهم ولقمة عيشهم، على الرغم من قلّة الإمكانيَّات والحصار الشامل حتى للكمامات.

بينما الدول الرائدة في الدفاع عن مجمل الكائنات الحيّة، والمتخمة بأرصدتها الماليَّة، والمتباهية بعظيم ابتكاراتها وأنظمتها، وسياساتها الليبراليَّة، والرائدة في الديمقراطيَّة، قد انكشفت حقيقتها حين تهاوت هذه الصورة عندما شاهد العالم واستمع إلى نداءات الاستغاثة من على أبواب المستشفيات وفي أروقتها، ومن التصارع بين هذه الدول لاحتكار الحصول

على المعدَّات والأدوات الطبيَّة، حتّى أنَّ البعض منهم، جاهر علنًا بأنَّ لهذا الوباء فضل في القضاء على العجزة والمرضى. وما زال الحدث مستمر، ومعه يبدو أنَّنا سنشهد المزيد من القراءات والوضوح في المشهد، الذي يضعنا أمام مسؤوليَّة تتعاظم مع تعاظم التداعيات، وما بين أيديكم هو الخطوة الأولى في هذا المسار.

إنَّ هذا التقرير هو بمثابة عدد أول من سلسلة خاصَّة بفايروس كورونا ستصدر تباعًا بشكل دوري استثنائيًّا. وقد تضمَّن هذا التقرير مجموعة من المقالات التي أوضحت الاتجاهات الفلسفية والاجتماعية والثقافية الجديدة التي يتّجه نحوها المفكّرين والباحثين والفلاسفة على مختلف المواقع العربيَّة أبرزها موقع "مؤمنون بلا حدود" وموقع "الجزيرة" وموقع أجنبيَّة مثل "الإندبندنت البريطانيَّة".

"من مركزيَّة الإنسان إلى هامشيَّته في زمن "الكورونا"؛ الهويَّة الحضاريَّة للإنسان في مواجهة الكارثة" هو عنوان أحد المقالات المنشورة على صفحة مؤمنون بلا حدود- معروفة باتجاهها الإلحادي-

مركز المعارف للدراسات الثقافيَّة

لا يتبنى المركز الآراء الواردة في المقالات
والأبحاث والأخبار المنشورة في هذا التقرير

فهرست المحتويات

عنوان المقالة	اسم الكاتب	الموقع	الصفحة
من مركزيَّة الإنسان إلى هامشيَّته في زمن "الكورونا"؛ الهويَّة الحضاريَّة للإنسان في مواجهة الكارثة	علي أسعد وطفة[1]	مؤمنون بلا حدود	5
الإنسان في زمن كورونا: تأمّلات في المرض والموت والدين	حمادي أنوار[2]	مؤمنون بلا حدود	10
كورونا ومشكلة الفتوى بشأن الأحقّ بالعلاج عند التزاحم	معتز الخطيب[3]	الجزيرة	14
التديّن الشعبي وأزمة كورونا	حيدر حسن الأسدي[4]	مؤمنون بلا حدود	18
ما بعد كورونا أخطر من الوضع الراهن	نعوم تشومسكي[5]	الإندبندنت	23
عالم ما بعد كورونا	ريتشارد هاس[6]	فورين أفيرز	28
الغرب يعترف.. كيف أسهمت تعاليم الإسلام في الحد من انتشار كورونا؟	(تقرير خاص)	الخليج أون لاين	33
ما بعد الكورونا أو النموذج العالمي الرابع	محمد شوقي الزين[7]	مؤمنون بلا حدود	38
كورونا والفلاسفة؛ حرب أهليَّة أم حرب وهميَّة؟!	محمد حجيري[8]	المدن	42
الكورونا وأوهام المعجزة الدينيَّة	وجيه قانصو[9]	المدن	46
الكورونا: ماذا تبقَّى من الموتى؟	بشير الذكواني[10]	مؤمنون بلا حدود	49

[1] باحث وأكاديمي سوري، يشغل منصب أستاذ علم الاجتماع التربوي، ورئيس تحرير مجلة نقد وتنوير الصادرة عن مركز نقد وتنوير للدراسات الإنسانية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو رابطة الكتاب السوريين، عضو اتحاد كتاب سورية الأحرار، عضو الشبكة العالمية للتربية على حقوق الإنسان، عضو المجلس العربي للعلوم الاجتماعية في بيروت، عضو الهيئة الاستشارية لمجلة متنوري بجامعة قسطنطينة في الجزائر، عضو الهيئة الاستشارية لمجلة دراسات الصادرة عن اتحاد كتاب وأدباء الإمارات العربية المتحدة .

[2] باحث مغربي، يحضر الدكتوراه في موضوع "الدين بين العقل واللاعقل في فلسفة برغسون" بجامعة الحسن الثاني. مهتم بالتصوف وفلسفة الدين والعلوم الإنسانية، شارك في العديد من الندوات والملتقيات الوطنية والدولية.

[3] أستاذ في المنهجية والأخلاق - مركز التشريع الاسلامي والأخلاق - جامعة حمد بن خليفة.

[4] باحث عراقي حاصل على الدكتوراه في الشريعة والفكر الاسلامي، مهتم بالفلسفة والتأويل والمناهج النقدية.

[5] أستاذ لسانيات وفيلسوف أمريكي إضافة إلى أنه عالم إدراكي وعالم بالمنطق ومؤرخ وناقد وناشط سياسي. وهو أستاذ لسانيات فخري في قسم اللسانيات والفلسفة في معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا والتي عمل فيها لأكثر من 50 عام. إضافة إلى عمله في مجال اللسانيات فقد كتب تشومسكي عن الحروب والسياسة ووسائل الإعلام وهو مؤلف لأكثر من 100 كتاب. وفقاً لقائمة الإحالات في الفن والعلوم الإنسانية عام 1992 فإنه قد تم الاستشهاد بتشومسكي كمرجع أكثر من أي عالم حي خلال الفترة من 1980 حتى 1992، كما صُنف بالمرتبة الثامنة لأكثر المراجع التي يتم الاستشهاد بها على الإطلاق في قائمة تضم الإنجيل وكارل ماركس وغيرهم.. وقد وُصف تشومسكي بالشخصية الثقافية البارزة، حيث صُوت له كـ "أبرز مثقفي العالم" في استطلاع للرأي عام 2005.

[6] رئيس مجلس العلاقات الخارجية الاميركية ونشر في مجلة فورين أفيرز

[7] باحث وأكاديمي جزائري، حاصل على دكتوراه في الدراسات العربية الإسلامية، تخصص فلسفة وتصوف، جامعة بروفونس. وحاصل على دكتوراه ثانية في الفلسفة حول المفكر الفرنسي ميشال دوسارتو، جامعة آكس-مرسيليا.

[8] رئيس القسم الثقافي في "المدن"

[9] أكاديمي وباحث لبناني حائز على شهادة الدكتوراه في الفلسفة، ويعمل أستاذًا للفلسفة في الجامعة اللبنانيّة.

[10] باحث تونسي متخصص في الفلسفة، يشغل منصب أستاذ التعليم الثانوي.

فيروس الحياة	علوان أمين الدين[11]	مركز سيتا	53
أزمة كورونا وانعكاساتها على منظومة القيم	محمد يتيم[12]	الجزيرة	56
تأمّلات في زمن الوباء: الحقّ في الحياة والبقاء	سركيس أبو زيد[13]	الأخبار	59
أوبئة نفسيَّة في الأساس؛ كيف تغذّي جائحة كورونا الكراهيَّة بأميركا؟	ستيفن تايلور[14]	الجزيرة	62
ما بعد كورونا؛ سور حديديّ بين الأغنياء والفقراء ونظام عالمي مشوّش	سارة دانيال[15]	الجزيرة	65
فضائل كورونا علينا	وليد التليلي[16]	العربي الجديد	68

[11] مؤسس ومدير مركز "سيتا" للدراسات، وباحث في العلاقات الدوليَّة.
[12] سياسي مغربي، يشغل منصب عضو الأمانة العامة لحزب العدالة والتنمية (المغرب).
[13] محلل سياسي لبناني يكتب في عديد من الصحف اللبنانية و العربية.
[14] أكاديمي أسترالي مختص في الطب النفسي.
[15] صحافية في مجلة لونوفيل أوبسرفاتور الفرنسية.
[16] باحث وناشر في موقع العربي الجديد التابع لعزمي بشارة منذ العام 2013.

من مركزيَّة الإنسان إلى هامشيته في زمن "الكورونا"؛ الهوية الحضارية للإنسان في مواجهة الكارثة[17]!

2020/3/21

أصعقت جائحة "الكورونا" كيان الحضارة الإنسانيَّة، هزّت أوصالها، وصدمت وجدانها الأخلاقي، وفتحت منافذ جديدة للوعي الكوني الأعمق في مختلف مجالات الفكر والسياسة والفلسفة. جاء "كورونا" اليوم، ليهزّ الكثير من المسلّمات المعرفيَّة الجديدة والأساطير الفكريَّة القديمة، فأيقظ الإنسانيَّة من غفوتها العنيفة الضاربة في الاستسلام للطمأنينة الحضاريَّة الجارفة. وقد جاءت هذه الصدمة، لتسقط الطروحات الأسطوريَّة لنزعة ما بعد الإنسانيَّة التي ترى في عالم الإنسان القادم ومستقبله الجديد صرحًا للخلود الإنساني الحافل بالمعجزات الحضاريَّة والمدهشات التكنولوجيَّة التي تعتمل في قلب الحضارة المعرفيَّة والثورة الرقميَّة المعاصر. وقد لا يكون في الأمر مبالغة، إذا قلنا إنَّ "كورونا" شكَّل صدمة أيقظت الإنسان من غفلته الحضاريَّة، ليهزم غروره الحضاري، ويستحضر عجزه الكبير إزاء المصير المستقبلي الغامض.

إذا كان "**كورونا**" **قد صعق رجال الدين وهزّ قداستهم**، فإنَّه لم يوفر رجال السياسة بحال من الأحوال، فاقتحم مخادعهم وهزّ أسوار حصانتهم المنيعة على غيرهم من البشر، فابتلاهم بوبائه وذوّقهم بعضًا من عذاباته. صدم كورونا رجال المال والأعمال، وها هي الشركات الاقتصاديَّة في طريقها إلى الإفلاس، وميزانيات الدول في سبيلها إلى الانهيار، وما قد يأتي قد يكون أشدّ وقعًا وأعظم هولًا. ومع "كورونا" لم ينفع الأغنياء مالهم ولا الساسة حنكتهم، ولا الجيوش قوّتهم، ولا المؤسَّسات الدينية بهالتها المقدسة، وما زال العلم – وهو الأمل الوحيد المتبقي – غير قادر، بل وعاجز حتى اليوم عن مواجهة هذا التحدي المرعب للمصير لفيروس متناهي الصغر لا يرى بالعين المجردة.

نعم، هو فيروس صغير، ولكنه استطاع أن يشكّل بتأثيره الكبير صدمة وعي ثقافي جديد، تجعلنا نفكر من جديد في وزن الإنسان وفي مكانته المزعومة، في هذا الكون، بوصفه مركزًا في الكون وصانعًا للحضارة وبانيًا للقوَّة والمجد. ولا نريد أن نذهب أبدًا إلى حدّ التقليل من شأن العلم، بل نحن على ثقة بأنّ العلم سيجد الدواء لهذا الداء عاجلًا أم آجلًا، والذي قد ينقذ الإنسانيَّة من هذا المصير المخيف. ومع ذلك، يبقى علينا أن نثير السؤال الخطير، وهو كم هو عدد الجائحات التي تنتظر الإنسانيَّة في مستقبلها القريب والبعيد؟ وكم هو عدد الفايروسات الغافية الهاجعة في تضاريس الزمن الغابر التي لم تستيقظ بعد، والتي قد تكون يومًا ما أشد فتكًا وأعظم هولًا من كل الجائحات التي عرفتها الإنسانيَّة عبر تاريخها المديد. فالعلماء يؤكّدون وجود جحافل من الفيروسات الرهيبة الكامنة في تلافيف الجبال الجليديَّة للقطب الشمالي المتجمّد، ويعتقدون أيضًا أنّ طبقات السماء العليا قد تحمل إلينا جائحات فيروسيَّة أعظم وأشد من "كورونا" بآلاف المرات قد يحرّرها

[17] موقع مؤمنون بلا حدود

الاحتباس الحراريّ، فتسقط على الأرض وبالًا وكأنّها حجارة من سجيل. نعم، هناك الكثير من التحدّيات الهائلة التي تواجه المجتمع الإنساني، ويبقى السؤال كيف سيكون المصير الحضاري للإنسانيَّة؟ وأين هي مركزيَّة الإنسان في هذا الزمن الرهيب مع تكاثف الأزمات الاقتصاديَّة وتضافرها مع اندلاع الحروب المدمرة، وزيادة درجة التطرّف والتعصّب والكراهيَّة، وتفاقم أزمات البيئة، وتعاظم التلوث في الأرض، والفساد في المجتمعات الإنسانيَّة، تزامنًا مع الحروب البيولوجيَّة والجرثوميَّة التي نراها اليوم تنذر بالكوارث التي لم يسبق للإنسانيَّة أن رأت لها مثيلًا، وكأنَّها بداية نهاية الإنسان والتاريخ الإنسانيّ.

مركزيَّة الإنسان وهويته

لا تتعلق القضية هنا بمصدر هذا الوباء الكوروني، فقد يكون سببه التلوّث المرعب الناجم عن التوحش في العادات الغذائيَّة للإنسان المفارق لطبيعته (أكل الحشرات النيئة)، أو قد تكون بواعثه نوعًا من الحروب البيولوجيَّة التي تخوضها الدول الكبرى في الصراع من أجل السيطرة على العالم. ومهما يكن الأمر، **إنّ جائحة "كورونا" تثير اليوم قضايا فكريَّة في مختلف المجالات والميادين في الأدب والفن والفلسفة والموسيقى وعلم الاجتماع، وهي فوق ذلك كله ستكون أكثر القضايا إثارة للوعي الفلسفيّ الجديد الذي يتعلّق بمركزيَّة الإنسان وهويَّته وانزياحاته المستمرّة عن مركزيَّة الكون؛ أي بوصفه غاية للوجود وصانعًا للتاريخ وبانيًا لأمجاد الحضارة الإنسانيَّة.**

يشير **لوتشيانو فلوريدي** في كتابه المشهور "الثورة الرابعة: كيف يعيد الغلاف المعلوماتي تشكيل الواقع الإنساني" إلى أربع إزاحات كبرى لمفهوم مركزيَّة الإنسان في الكون توازي أربع ثورات إبيستيمولوجيَّة غيَّرت في مفاهيم الإنسان عن الكون والوجود، وصدمت مركزيَّته في الكون. وينطلق **فلوريدي** في تصوره هذا من أن الايولوجيا القديمة قد ثبتت الإنسان بوصفه سيّد الكائنات الحيّة في الوجود (خليفة الله في الأرض)، وأنَّه يسود مملكة الأرض التي هي تاج الكون ومركز سطوته السماويَّة. وتلك هي الصورة التي جعل الإنسان من نفسه هويَّة مفارقة للكون بوصفه غايته الكليّة وسدرة منتهاه الأبديَّة.

لكن هذه المركزية بدأت تتحطم مع ولادة العلم الحديث في العصور الحديثة، وكانت الصدمة الأولى لهذه المركزيَّة في اكتشاف **نيكولاس كوبرنيكوس** لهامشيَّة الأرض بوصفها كوكبًا يدور حول الشمس؛ وقد أدّى هذا الاكتشاف العظيم إلى اهتزاز كبير في مركزيَّة الإنسان وبتراجعنا عن الإيمان بمحوريَّة الإنسان وغائيَّته الكونيَّة.

بعد ذلك حدث الانهيار الثاني في المركزية الأخلاقية للإنسان عندما نشر **تشارلز داروين** كتابه أصل الأنواع الذي يتضمن نظريته في تطور الأنواع عبر مقولة (البقاء للأفضل في منظومة الصراع من أجل الحياة)، وقد بيَّن داروين في عمله العلمي أنَّ جميع سلالات الحياة تطوّرت على مر السنين من أسلاف مشتركة عن طريق الانتخاب الطبيعي. وقد أدّت النتائج العلميَّة الجديدة لنظريّته إلى إزاحتنا مرة ثانية من مركز المملكة البيولوجية. وبعبارة أخرى، يفقد الإنسان في

نظرية داروين فكرة التفرد البيولوجي في الكون، فهو كما تشي نظريته التطورية فـ"**الإنسان ليس من أصل مختلف وكلاهما الإنسان والحيوان يتحدران من أصل واحد، والفرق بينهما يعود إلى عملية التطور والاصطفاء الجيني والبيولوجي**".

جاءت بعد ذلك الصدمة الثورية الثالثة بالمطرقة السيكولوجية لنظرية **فرويد** الذي حطّم أوهام مركزية العقل والوعي الإنساني خلال عمله في التحليل النفسي. وللمرة الأولى تظهر في الإنسان العاقل الحكيم المتفرد المساحة اللاشعورية الواعية بوصفها جوهر الشخصية والبعد الأعمق للوعي الإنساني. **فالعقل الإنساني كما يرى فرويد، ينطوي على مساحات لاشعورية هائلة ومجهولة تحكمها قوانين وآليات لاشعورية غير واعية شديدة التعقيد خارقة للوعي ومفارقة للشعور الواعي**؛ فلم يعد الإنسان هو الرجل الحكيم العاقل بالمطلق، الذي يسيطر على سلوكه ويدبر الحياة، وينظر إلى الكون من خلال منظور عقلي يتسم بالوعي الكامل.

بعدها كانت الصدمة الثوريَّة الرابعة التي جاءت عنيفة جدًا لتزيح مركزية التفكير عند الإنسان بوصفه الكائن الأكثر ذكاءً في الكون، وتجلّت هذه الصدمة في إبداعات **آلان تورينغ** أبو الثورة الرابعة، وفي هذا يقول **فرايدي**: "لقد خلعنا تورينغ من مكانتنا المتميزة والفريدة في مملكة التفكير المنطقي، ومعالجة المعلومات، والسلوك الذكي. لم نعد سادة الغلاف المعلوماتي (الإنفوسفير) بلا منازع، فأجهزتنا الرقمية تنفذ مزيدًا ومزيدًا من المهام التي تتطلب منا بعض التفكير، عندما نكون في موضع المسؤولية لقد أُرغمنا مجددًا على التخلي عن موضع كنا نظن أنه فريد من نوعه".

مثلما فعلت الثورات الثلاث السابقة "أزالت الثورة الرابعة اعتقادًا خاطئًا بشأن تفردنا الذهني والعقلي، وقدّمت أيضًا الوسيلة المفاهيمية لمراجعة فهمنا لذاتنا. إننا نتقبل برؤية فكرة ما بعد تورينغ في أننا لسنا عناصر نيوتونية، ومستقلة، وفريدة من نوعها بل نحن كائنات معلوماتية متصلة بعضها ببعض وجزءٌ من كائنات حية معلوماتية مع عناصر وسيطة (وكلاء) معلوماتية أخرى، طبيعية واصطناعية، هي أيضًا تعالج المعلومات بصورة منطقية وبشكل مستقل".

لقد أخرجت الثورة الرابعة إلى النور الطبيعة المعلوماتية المُتأصلة في هوية الإنسان. وهذا أمر يشعرنا بالتواضع، فنحن نتقاسم هذا الطابع مع بعضٍ من الأدوات الأذكى التي صنعناها بأيدينا. أيا كان الشيء الذي يُعرّفنا على أننا متفردون، فهو لم يعد أننا أفضل من بعض تكنولوجيات المعلومات والاتصالات. على هذا النحو، كما يرى **فلوريدي**: "لم نعد في مركز الكون ولا في مركز المملكة الحيوانية؛ فقد كنا نظن أننا ما نزال نتحكم في محتويات عقولنا، كنا نظن أننا السلالة المسؤولة تمامًا عن الأفكار الخاصة بها". وهنا يضعف تألق ووهج المقولة **الديكارتية** المشهورة: "أنا أفكر، إذن أنا موجود" التي تشيد بتفرد الإنسان على التأمل الواعي والعقلنة الشفافة للوجود". فالحواسيب وثورة المعلومات والذكاء الآلي والتفرد التكنولوجي أصبحت شواهد على هامشية الدور الإنساني في العالم وفي الكون وعلى فرصة اتساع هذه الهامشية إلى الحد الأقصى في عالم الإنسان.

صدمة الكورونا: خطر وجودي

الآن تأتي الصدمة الجديدة ممثلة في هجمة "الكورونا" لتؤكد من جديد دورنا الهامشي في الكون. وإذا كانت نظرية **داروين** قد أكدت على عمق الصلة بين كياني الإنسان والحيوان، فقد جاءت ثورة "الكورونا" لتأخذنا إلى استجواب أعمق الصلات الحيوية بين الإنسان والفيروس؛ فالإنسان كينونة حيوية حية، وكذلك هو حال الفايروس؛ أي هناك جذر مشترك بين الدقائق الحية والإنسان. فالبشر كما يقول **فتحي المسكيني:** "مجرّد مساحة بكتيرية أو فيروسية عابرة للأجسام الحيوانية، وليس "صورة" إلهية مطبوعة على صلصال مقدّس" . وكذلك، فإن "هوية أجسادنا إذن لا توجد بين أيدينا، في مساحة أخلاقية مرئيّة، يمكننا أن نسيطر عليها، بل هي قد أصبحت ارتسامات وراثية تتخطى الادعاء الأخلاقي للبشر من أجل أن تعيدهم إلى التركيبة الخلويّة التي يشتركون فيها مع النبات والحيوان، تلك التي أقامت الإنسانية التقليدية لفترات متطاولة انفصالها الأخلاقي أو الميتافيزيقي عنها. "

الفيروس "**إذن يهدم الجدران الثقافية التي بناها الإنسان التقليدي من أجل أن يفصل "نفسه" عن بقيّة الكائنات "الحية" بحسب ترتيب أخلاقي لم يعد له اليوم ما يبرّره. ولأوّل مرة، في عصر الفيروسات، صار الجسم البشري هدرًا عضويًا أمام كل أنواع الهجومات الحيوية، من منطقة "خارجة" بمعنى ما، دون أن يكون "الخارج" خارجيًا دوما**". وهذا ما أشار إليه **ليفي ستراوس** حول "هو تلاشي الفواصل الجوهرية بين الإنسان والحيوان، ولاحقًا بين الإنسان والبكتيريا، وذلك عبر تعليف الماشية بلحوم ميتة قبل أن يستخدمها الإنسان، على النحو الذي ينتقل فيه الفايروس الغامض من الحيوان إلى الإنسان، هادمًا الحواجز الطبيعية والثقافية العميقة بين النوعين".

يتمثل خطر "الكورونا" بأنَّه ليس إلَّا واحدًا من ملايين الفيروسات الذكية التي تنتظر فرصتها يوما في اجتياح أجساد البشر! والسؤال الجاثم على صدر الإنسانية أبدًا هو: فهل سيكون في مقدور الإنسان أن ينتصر دائمًا؟ والسؤال الأخطر ماذا لو خسر الإنسان حربًا واحدة مع فايروس مستجد لا يرحم؟ فالخسارة الواحدة قد تنتهي إلى إفناء الجنس البشري على الأرض، وهذا أمر محتمل، ولاسيما في أجواء الحروب الحيوية التي تديرها الشركات الكبرى والدول. والبشر يشكل بأنفسهم أدوات الإفناء باصطناع الحروب، فنحن ربما نساعد على هزيمة الإنسان نهائيًا في المركز وفي الهامش على حدّ سواء. وهذا ليس غريبًا في عالم البشر، إذ **تبددت حضارات كحضارة الهون في شرق أوروبا والإنكا والمايا في المكسيك ودول أمريكا اللاتينية واختفت فجأة دون سابق إنذار، حتى إن الغزاة الغربيين حين وصلوا إلى هذه المناطق لم يجدوا إلا أهراماتهم قائمة من غير بشر أو حياة.** "وهناك دراسات تشير إلى أن سبب الانقراض هو البكتيريا التي حملها الرجل الأبيض إلى أرض القارة الأمريكية، والتي كانت أسرع من حامليها في غزو أمم لا تملك الحصانة الكافية ضدها ففنت وانتهت وذهبت في خبر كان".

خاتمة – البشرية والمصير

أثار "كورونا" صدمة وعي كبرى وشعورًا لدى الإنسان بالانتماء الواحد إلى المملكة الإنسانية المفتوحة على العالمين الحيواني والجرثومي. والإنسان يدرك اليوم ومنذ الأمس، بأن وجوده مهدد بمخاطر وجودية لا حصر لها، ولكنه لم يأخذ بالحسبان أن اللامتناهيات الصغرى والدقائق المجهرية قد تكون أعظم هذه المخاطر وأشدها فتكًا. والآن يطل "الكورونا" كشكل محتمل لأنواع كثيرة من التهديدات الفيروسية القاتلة التي يمكن أن تؤدي إلى فناء العالم. وكما يقول **خسرو باقري** في مقالة له بعنوان "الكورونا المعلم الأخير": "لقد غيّر الكورونا نظرتنا للعالم، حين أثبت بأن العالم مليء بالأسرار وأظهر هذا للعيان: كيف يطوي صفحات حياة البشر، بما لديهم من حضارات بطولها وعرضها. فهو يتمكن، عبر تدخله بتفاصيل بسيطة تكاد لا تساوي شيئًا، من جعل البشر كالعصف المأكول، وكأنهم ليسوا شيئا مذكورًا"!

يتابع **خسرو** القول: لقد "برهن الكورونا بأن الجميع متساوون أمام قانونه، ولا تمايز لأحد على أحد، حيث يكون الحبر الأعظم كأبسط رعاياه. فالملك يصرع على الأرض نفسها التي عاش عليها المتسول ردحًا من الزمن. **لقد حوّل "الكورونا" الـ "أنا" إلى الـ "نحن" ودلّ بشكل قاطع بأن الناس ليسوا متساوين فقط، بل مندمجون معًا، وأن مصير كل إنسان متداخل مع الإنسان الآخر في نسيج منسجم وكلٌّ معقّد متحد؛ وليس الأمر بأنّه إن استطاع أحد أو جمع ما "أن يقلع شوكه بيده"، سيتمكن من النجاة بنفسه، ويأوي إلى "ركن شديد"، ويعيش حياته هانئًا في فقاعته المستقلة وجزيرته المعزولة: إمّا أن نحيا معًا أو نموت معًا! وهذا درس "الكورونا" العظيم**".

قد يكون "كورونا" فرصة حقيقة وربما مثالية "لمراجعة أحوال إنسانية معذبة، أثبتت الملمات أنها في النهاية أسرة واحدة، تعيش على أرض واحدة، وحين تتألم فإنها تشعر بالألم الواحد، وفي نهاية المطاف ترفع أكفها بالدعاء والتضرع لرب واحد".

في النهاية، نقول إن مملكة الإنسان مملكة بين الممالك الحيوانية والجرثومية والنباتية تتداخل معها وتتفاعل تفاعلًا وجوديًا يحفظ الحياة وينهض بها، ومن غير هذا التفاعل الخلاق قد تتم الإطاحة بالحياة نفسها في مملكتنا الإنسانية المتفردة في الكون. وقد نقول إن فرصة الإنسان ومركزية الإنسان وتميزه لا تقوم على ازدراء ممالك الحياة التي تحيط بنا، بل يجب أن تقوم على الاحترام والتفاعل الحذر والحسابات العقلية لتحديات المصير الإنساني نفسه. فثورة الفايروسات والكوارث الطبيعية ما هي في نهاية الأمر إلا نتاج لعدوانية الإنسان ضد الطبيعة والممالك الحية فيها، وقد حان للإنسان أن يعود إلى رشده، وأن يأخذ بالعقلانية الأخلاقية في إدارة المصير تحت عنوان احترام الحياة.

الإنسان في زمن كورونا: تأمّلات في المرض والموت والدين[18]

2020/3/24

لولا المرض لأشكل الأمر

إن التفكير في الوباء، أو الفيروس، لا يقف عند تَمثُّلِ حدودِ ما يُمكِنُهُ أن يُشَكِّلَ من تهديدٍ لحياة الإنسان وتَرَبُّصٍ بوجوده، ورُبَّما استعجالِ فنائه؛ وإنما يذهب إلى ما هو أبعد وأعمق من كلّ هذه الهواجس. فمجرد تأمُّلِ حال الإنسان في سياق التفكير هذا، يكشف عن ضعفه: إنه كائِنٌ هيّنٌ شأنُه في هذا الوجود، ضعيفٌ إلى درجة إيمانهِ بضعفه بوثوقيةٍ تجعله لا يتوانى عن تغليف هشاشته هذه بِحُجُبٍ عديدة، وبحُجُب للحُجُب نفسها، لينسى ضعفه المحتوم، فيعتنِق، لِمُداراتِهِ، وهمَ القوة، وهو وهمٌ أزَليّ لا يطفو على السطح إلا في ظرفٍ مأزوم، وفي كبد وضعٍ كارثي. إن الأزمة، شأنها شأن المرض أو الوباء، رَجَّةٌ تُحيي قوّةً حيويةً كامنةً في الوجود الإنساني، تتدفق من غياهبه لِتُكَسّر قشرةَ رتابة جموده، فتدفعه إلى الانتباه والتيقظ الحَذِر.

إننا ننسى وجودنا، ونحن غَرقى في وحل الاعتياد، والإيقاع المكرور، وحالما يظهر جديدٌ مباغت، تمتصُّنا جِدَّته، ويتَمَلَّكُنا الخوف من غرابته. نكره مثل هذه الأوبئة، ليس لأنّها قاتلة فقط، وإنما لأنها جديدة وغريبة وغير معتادة. فقد أَلِفْنا من الأمراض ما هو أَشَدُّ فتكًا، لدرجة أن بَاتَتْ مستهلكة في تداوُلِنا اليومي، وصار الواحد منا يكاد لا يشعر بظلها على الواقع، كما لو أنه في منأى عنها، وأنها لا تعنيه في شيء. أما الفيروس –كورونا مثلًا– فَطَرَافَتُه/ خطورته ملفتة للنظر، لأنه قَلَبَ الأفئدة في كل أقطارِ المَعمورة، وما من بشريٍّ إلا ويشعر بأنه مُهَدَّد وَمَعْنِيّ دونما حاجة لمقدمات أو مؤشرات أو تنبيهات.

لقد أدرك الإنسان الآن فقط، أن الحياة توشك أن تكون «لا شيء» على الإطلاق، وأن المسافة بينها وبين الموت، قابلةٌ لأن تُطوى بسرعة البرق، لا ندرك معها كيف يمكن أن يتم هذا التحول أو الانتقال. لكن الأهم، في كل هذا، هو استيعابه، أخيرًا وبشكلٍ بديهي، لدرس عظيم: «عدالة الطبيعة وحيادها» في مقابل «ظلم الإنسان وأنانيته»؛ فالموت فعل طبيعي، كوني وعادل. أما القتل، فإنه جُرم إنساني، متزمت وجائر.

لذلك في قلب الأزمات المرضية والوبائية، تتهيأ للإنسان فرصةُ الوعي بأن الطبيعة وحش لا يمكن ترويضه، مهما حاول التحكم فيها وبسط سيطرته عليها. وأَنَّها، في الآن ذاته، ملاذه الوحيد، حيثُ يحتمي بها منها ومن ذاته أيضًا، ثم لا مناص، مما أسماه **ميشيل سير** بِـ «التحكم في التحكم»؛ أي أن نعيد ترتيب علاقتنا بالطبيعة على أسس معقولة ومقننة. ونضيف إلى قول ميشيل سير هذا، أن الطبيعة اليوم، في ظل هذا الواقع المرعب والفتاك، يمكن أن يُنظَرَ إليها في معانٍ

[18] موقع مؤمنون بلا حدود

أوسع؛ **فهناك الطبيعة الإنسانية التي تناسيناها وأغرقناها في مادية مُجحفة وقاتلة.** نحن أمام فرصة لإعادة النظر في جملة من الأفكار التي يبدو أنها تقادمت، وما عاد واقع الحال يتقبل اجترارها وإعادة إنتاجها، وهي فرصة أيضًا لخلق قطائع جديدة ذات طابع خلاق، تفتح للإنسانية آفاقًا أرحب في شتى مناحي الحياة، العلمية والميتافيزيقية والوجودية.

في حكمة المرض

هل المرض مجرد علة تصيب الذات الإنسانية فقط؟ أم إن الأمر يَتَعدَّى ذلك إلى علّةٍ تنخر وجود الإنسان برمّته فَتَفتِكُ بالجسدي منه والنّفسي؟ إننا نمرض، فيمرض الوجود معنا، ثم تمرض الطبيعة وتَعْتَلُّ الحياة. مع المرض يزول الاستهتار، ويعم الجد المُفرط في جِديته؛ فالجميل في الحياة اليومية هو قدرة المرء فيها على الاحتماء بالهزل والضحك والمرح، وحتى السخرية والتفاهة في أحايين كثيرة، ليخرج من رتابة الوجود وجديته المبالغ فيها. لكنه في أثناء المرض، وخصوصًا في زمن الأوبئة العالمية، ليس بمقدوره سوى أن يكون جديًّا مُطلَقَ الجدية. إذ تربطنا المعاناة والآلام بوقائع وحقائق ميتافيزيقية لا يمكن لإنسانٍ سويٍّ، وفي صحة جيّدة، أن يفهمها. **المرض علّةٌ ونقص وفاقة وعوز، ليس في المريض فقط، وإنما في الحياة برمتها، في الوجود وفي أصله، وهو تذكير دائم للإنسان بأنه لا يستطيع أن يكون سيّد نفسه وسيد الوجود، وبأن هناك قوى تتجاوز قواه الخاصة. إنها قوى ما يسميه مونتيني بأُمّنا الطبيعة** التي تعيش داخل كل واحد منا، وكلٌّ منا يعيش في قلبها، وهناك يموت ويفنى.

إن المرض مرادِفُ الموت بالنسبة إلى الحياة، له وظيفة فلسفية مهمة، وهي أنه يبرز لنا مدى هشاشةِ فكرةِ حُلُمِ الإنسان بحياة كاملة ومثالية خالية من الألم والعوز، رغم أن الواقع الإنساني أثْبَتَ أن التجارب الحقيقية والأصيلة تكون نابعة من لحظات المرض التي هي أكثر لحظات العمر بُطئًا وتركيزًا وشدة وحِدّة. فالمرض، يقول **سيوران**، يَجعل الموت حاضرًا على الدوام؛ ومن هنا عمقه الحِكموي.

على الرغم من خطورة الأمراض والأوبئة والفيروسات العالمية، المنتشرة بسرعة؛ إلا أنها عبارة عن إنذار ينبهنا إلى أمور أكثر أهمية في الحياة، وبالضبط تلك التي فَرَّطنا فيها بشدة، وطالها الإهمال رغم حيويتها وضرورتها. لذلك، نرى المرض ليس على أنه ناقوس خطر وموت يدق، وإنّما هو إنذارُ حياة تدعونا إلى أن نعيد إليها حيويتها، وقيمها، وأخلاقها، وجمالها.

المرض بين الخوف والأمل: أو في انطفاء سحر الديني

كل إنسان يمرض، فيَجعَلُهُ خوفه من الموت يخشى المرض نفسه، لكن ما يشهده العالم اليوم من موجات الخوف الهيستيرية والمرضية له ما يبرره خارج سؤال الحياة والموت؛ فجميع الأوبئة والفيروسات تأتي مُحَمَّلة بالموت، تحل ثم ترحل. لكن يبدو أن فيروس كورونا هذا قد أتى مُحمَّلًا بما هو أخطر من الموت؛ فهل هناك فعلًا ما يمكن أن يكون أخطر

من الموت؟ إن الخوف من هذا الفيروس هو خوف من حركيته وحيويته، ومن تعامله العادل مع بني البشر، لذلك نقابله بنوع من اللامبالاة التي تنطوي على الكثير من الحرص والحذر، وتُبطن ما لا يطاق من القلق والترقب والخوف، ثم، قد نواجهه بالتسفيه والتبخيس. وهناك من يواجهه باللامواجهة وبالهروب منه ومن الناس، ومن الذات، وهذا هو الأخطر؛ سيهرب من كل هذا لكي يحتمي بمن؟ أيّ ملاذ سيلجأ إليه ليأويه في هذا العالم الذي يكاد يُفضَح ويُعرى ويُكشف؟

الخطير في هذه الفيروسات والأمراض والأوبئة المستشرية عالميًّا، هو أنها لا تُهدّد حياة الإنسان وحده، بل تطال الإله أيضًا. إنه لأمرٌ مرعب، ومُعَبّرٌ أيضًا، أن يفقد الإله مكانته، ويكفّ الناس عن التوجه إليه توسّلًا وتضرّعًا وصلاة؛ فهل نصلّي له وإليه، أم نصلّي لأجله؟ ولمن سنصلّي لأجلنا ولأجله ولأجل العالم برمّته؟ في ظلّ هذا العراء الوجودي، حين انكشف ما كان غامضًا، وفُضِحَ ما كان مستورًا، وكفَّ المفارق عن تلبية حاجات المحايث، وإرضاء تطلعاته والاستجابة لرغباته وتحقيق آماله؛ لا عجب في أن يشهد العالم ثورة وجودية جديدة تهم علاقة الإنسان بذاته وبالعالم وبالإله. إنها ثورة قد تعيد من جديد إثارة النقاشات القديمة الجديدة حول العدمية ومعنى الحياة والألوهية، وعودة الديني أو استقالته الكلية.

إن أشد ما يمكن أن يهدد حياة الإنسان هو تفشي المرض مع انعدام الأمل. فإذا كان المرء يقاوم الأمراض بما يحوزه من أماني ورجاء في البرء منها، فإن انعدام الأمل يسهم في استفحالها وتفشيها. قد نفقد الأمل في الطب والعلم، فنتجاوز ذلك، ونخلق آمالًا جديدة؛ **لكن فُقْدَان الأمل في الإله أمر لا يُتجاوز على الإطلاق، لأن لا أمل بعده، أو على الأقل هذا ما يبدو لبعضهم. إذ يشكّل الوضع الراهن، المعتل والموبوء، مِحَكًّا للعلم والدين على حد سواء، لكن الفرق هو أن العلم سيكون الرابح الأكبر، سواء انتصر أو انهزم. أما الدين، فلن يظفر إلا بالخسران في قلب وضع إنساني يقع في مواجهة مباشرة مع الحقيقة، بعيدًا عما هو غيبي.**

هل فقد الإنسان الثقة في ما يسمى العناية الإلهية؟

كلا، لن يبلغ ذاك الحد ولو تمادى في المكابرة والمعاندة، وبلغ درجة مقاومة الحقيقة البَدِية والجلية. لكن الأهم الآن هو ثقته القوية في العلم، ويقينه التام في أن رهانه الأكبر بات علميًّا ودنيويًّا بامتياز، غير أن الغريب في الأمر هو أن نجاح العلم سَيُفَسَّر أيضًا بأنه فضلٌ من العناية الإلهية، رغم أنه تفسير ينطوي على إيمان خفيّ واعتراف جواني، بلامعقوليته وبسذاجته كذلك. لكن المهم هو ألا ينطفئ سحر الديني، وألا يظهر إفلاسه في زمن المرض هذا. لا مرية في أننا إزاء مرض لا يُبْقي ولا يَذَر، لدرجة أن الدين صار، هو الآخر، مُعتلًّا ومستقيلًا، لا حول له ولا قوة، انطفأ سحره، وخفت بريقه؛ فقد تنازل عن موقع الريادة، وتبوأ منزلةً تَنِمُّ عن انخفاض مهول في قيمته لدى معشر المتدينين. ماذا عساه يقول في ظل هذا الوضع المأزوم؟

أكيد أنه لا قول له، إلا بعد أن يقول العلم كلمته، أو تقول الطبيعة كلمتها الأخيرة. آنئذ سينقضي أجل القول، وسيكون قوله بلا مقال. وهذا ما نلحظه الآن من صراع بين أهل العلم وأهل الدين؛ بين من يعمل ومن يأمل. إن انطفاء

سحر الديني لا يعني فقط صمت الدين أو عجزه، أو «غياب» العناية الإلهية وعدم استجابتها لنداء الأبرياء والضعفاء، من أطفال وشيوخ، عاجزين وعُزَّل؛ بل له انعكاسات أخرى تتمثل في إفلاس القيم الدينية وانسلاخ الإنسان –المتدين وغير المتدين– منها، وبروز الذاتية المبالغ فيها والفردانية المفرطة، ونُكران الآخر في مقابل تعظيم الذات والتحزب حولها.

من مزايا كورونا

الجميل في كورونا، أنه فيروس لا يختار ولا يفاضل بين الناس؛ فهو لا يُمَيّز بين الغني والفقير، بين المؤمن وغير المؤمن، بين المؤله والملحد... إلخ. اجتاح العالم بِرُمَّته، وغَمَرَ جميعَ تفاصيله؛ دقيقُها وعظيمُها، صغيرُها وكبيرُها. لكن الملفت للنظر، هو أن عدم تمييزه ذاك هو سرّ الاهتمام الشديد به، بل هو أصل هذا «الخوف الجماعي» منه. ليس المقلق فيه هو تهديده لحياة الناس، بل تهديده لحياة جميع الناس دون استثناء؛ هنا تتبدَّى عدالة الطبيعة ومساواتها. يموت كل يومٍ آلافُ المرضى والضعفاء والبؤساء، بسبب الجوع والفقر والمرض والحرب، وما من أحد يكترث لحالهم، لدرجة أن بات موتهم حَدَثًا روتينيًّا مثله مثل أية تظاهرة رياضية؛ هناك فئة تتنافس رياضيًّا، وأخرى اقتصاديًّا، وثالثة سياسيًّا، ورابعة تتبارى فنيًّا. أما الفئة الأكثر بؤسًا، فتقاتل وتصارع وجوديًّا وطبيعيًّا؛ تحارب لتعيش، فتقاوم الطبيعة والذات والآخر، من دون أن يلتفت لها أحد. لكن، الآن فقط، صار الموت مدعاة للتفكير. في هذه اللحظة بالذات انتبه الإنسان إلى أنه، في الوقت الذي يحيا فيه حياة عادية وطبيعية، هناك من يموت لأجل أن يحيا. الآن فقط غدا الموت أعدل الأشياء قسمة بين الناس، فبات للجميع نصيبه الأوفر منه، وما عاد في حِلٍّ منه ومن مسبباته.

في زمن الكورونا هذا، أصبح الموت غبارًا تتقاذفه الرياح، وقد يدخل من أية نافذة، من دون أن يفرق بين بيتٍ صغيرٍ وقصرٍ كبيرٍ. يتحدّث الجميع الآن عن كورونا، وعن هذا اللاشيء، لا لشيء إلا لأنه فيروس لا يرى، لا يختار ولا يميز؛ لأنه لا يعرف ولا يحكم، لذلك فإنه لا يخطئ. لو أمكن لبعضهم أن يتحالف مع هذا الفيروس، لتمت أدلجته والاتجار به والزج به في غياهب الهوامش بعيدًا عن المركز؛ ولربما **نسمع بفتاوى جديدة –وهذا ما تتقاذفه الألسن اليوم بالفعل– تبرر مرض بعضهم بكفرهم، وتُعَلّلُ موت بعضهم الآخر بفسادهم وفساد قيمهم وأخلاقهم. إذَّاك يغدو الفيروس مخلوقًا إنسانيًّا، يُحَمَّل ما لا يتحمل، كما فعل الإنسان مع فكرة «الإله» نفسها**. يعكس هذا الفيروس إذن، كونية الطبيعة وقوتها، كونية الإنسان وضعفه، ثم كونية الوجود وعبثيته. ويكشف لنا عن حقيقة الإنسانية المشتركة، وهي «الهروب الدائم من الموت». إنها الحقيقة القادرة على أن تغير كل شيء في الإنسان، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وفلسفيًّا. فقد يهرب المرء من الموت، ولو اقتضى منه الأمر الانسلاخ عن ذاته، ويحتمي بالآخر الذي لطالما عدّه جحيمًا وعدوًّا. وقد يهرب من الموت بحثًا عن الطبيعة، ولوذًا بالإله، وربما يهرب من الموت بحثًا عن الموت نفسه. هذا هو قدر الإنسان، وتلك هي تراجيديا الحياة التي لا نملك إلا أن نعيشها بتفاؤل وفرح، بألم وأمل؛ نخشى فيها الموت والمرض، لكننا نعيشها، وكلنا أمل في سعادة قد تتحقق.

كورونا ومشكلة الفتوى بشأن الأحق بالعلاج عند التزاحم[19]

2020/4/8

سُئل أحد المشايخ المشتغلين بمقاصد الشريعة عمن له الأولوية في العلاج من مصابي فيروس كورونا، إذا تَزاحم المرضى، ولم تتوفر المعدات اللازمة للجميع؛ فاكتفى بالقول: يقدَّم الأَسبق فالأسبق منهم مخافة فتح "باب التلاعبات والأمزجة". أما المجلس الأوروبي للإفتاء والبحوث، فقد أجاب – في اجتماعه الأخير– أنه "**يجب على الأطباء المسلمين الالتزام بالنظم واللوائح الطبية في المشافي التي يعملون فيها. فإن وُكِل الأمر إليهم: عليهم أن يحكّموا المعايير الطبيّة والأخلاقيّة والإنسانيّة. ولا يجوز نزع الأجهزة عن مريض يعالج بها لصالح مريض جاء بعده. أمّا إذا كان الطبيب حائرًا بين مريضين بحيث لَم يَعد له مجال إلا لاختيار أحدهما فيقدّم الأسبق؛ إلّا إن كان ميؤوسًا من شفائه، و[يقدم] من يحتاج إلى الإسعاف الطبي العاجل على من تسمح حاله بالتأخر، ومن يُرجى شفاؤه على من لا يُرجى، وذلك بغلبة الظن والتقدير الطبي**".

تعكس هاتان الإجابتان طريقة تفكير مفتي اليوم في القضايا المعقدة وشديدة الحساسية، حين يميل بعضهم إلى الإجابات العامة أو الحلول السهلة والتقنية، ويَحسم في قضايا معقدة تحتاج إلى بحث ونقاش معمق ومفصّل يليق بالقضية نفسها، ويفي بجدية علميْ الفقه والأخلاق الإسلاميين بعيدًا عن مثل هذه الإجابات العجلى والقاصرة؛ لأنها تتعلق بالأرواح من جهة، وبتعقيدات العلاقة بالدولة ومؤسساتها، وعلاقة أفراد المجتمع بعضهم ببعض، وبتخصصات وتفاصيل قد لا يُلِمّ بها المفتي نفسه ومن ثم فعليه بحثها والاستشارة فيها، من جهة أخرى.

إنَّ موضوع الأحقية في العلاج عند التزاحم لا يخضع لفتوى مفتٍ فقط؛ لأننا لا نتحدث عن تصرف أو خيارات فردية يحسم فيها المفتي، بل عن موضوع يجب أن ينبني على سياسة عامة منظمة للدولة تنفذها المستشفيات؛ حتى لا تكون المسألة خاضعة لاختيار كل مستشفى أو طبيب، ثم سيكون باب التلاعب أو التقدير الشخصي واسعًا هنا."

لا تعكس الإجابة الأولى خِفَّةً فقط؛ بل تفتقر إلى تصور صحيح للموضوع وتعقيداته التي تتصل بحقول علمية أخرى: كالصحة العامة والأخلاقيات الطبية، فضلاً عن قواعد الموازنة في الفقه الإسلامي التي تغيب هنا. فالأسبقية هنا لا تتضمن قيمة معيارية؛ لأن المفتي بها يخلط بين الأسبقية التنافسية في فعل الخيرات، حيث العامل الزمني له قيمته في المفاضلة بين الأفراد، وبين الأسبقية في وصول مريضٍ إلى المستشفى وهي مسألة إجرائية عارية عن القيمة. ولو اتبعنا الأسبقية مطلقًا، فمعنى هذا أن المسائل القدَرية ستكون هي الحاسمة وحدها؛ وسيحالف الحظّ من يعيشون قرب المستشفيات على خلاف من يعيشون بمنأى عنها في الأطراف والقرى؛ أي أن سد ذريعة التلاعب التي تشكل الهاجس

[19] موقع الجزيرة

الوحيد لهذا المفتي جعلته ينحاز –من دون وعي– ضد الفقراء وسكان الأطراف، لأن المستشفيات لا تتوزع في كامل جغرافيا كل دولة؛ ثم ماذا لو جاؤوا معًا؟ ما القيمة التي نسعى للمحافظة عليها هنا؟

حين يقرر المجلس الأوروبي أنه لا يجوز نزع جهاز التنفس عن شخص لأجل شخص جاء بعده، يعود إلى معيار الأسبقية نفسه؛ ولكن ماذا لو كان هذا المريض لن يستغني عن الجهاز لمدة طويلة مع وجود الحاجة إليه؟ ماذا لو كان المريض الذي على الجهاز ميؤوسًا من علاجه، ولن يستغني عن الجهاز مطلقًا؟ وهل نزع الجهاز في هذه الحال يعدّ قتلاً أم لا؟ ماذا لو كان نزع الجهاز في هذه الحال سيؤدي إلى إنقاذ عدد من المرضى مقابل شخص واحد؟ هل هناك فرق بين من تكفل بدفع تكاليف الجهاز نفسه ومن يتلقى العلاج مجانًا؟

أسئلة كثيرة تُظهر مدى ارتجال المجلس في البت في قضايا لم يستوفِ بحثها، ولا استعان فيها بأهل الاختصاص في حقل الأخلاقيات الطبية، ولا رجع فيها إلى قواعد الفقه والترجيح والموازنة بين المصالح. الإشكال الآخر أن هذا الموضوع لا يخضع لفتوى مفتٍ فقط؛ لأننا لا نتحدث عن تصرف أو خيارات فردية يحسم فيها المفتي، بل عن موضوع يجب أن ينبني على سياسة عامة منظمة للدولة تنفذها المستشفيات؛ حتى لا تكون المسألة خاضعة لاختيار كل مستشفى أو طبيب، ثم فسيكون باب التلاعب أو التقدير الشخصي واسعًا هنا.

استحضرتْ فتوى مجلس الإفتاء الأوروبي البعد التنظيمي، ولذلك بدأت بإرشاد الطبيب إلى اتباع التعليمات واللوائح المتبعة في المستشفى الذي يعمل فيه، ولكن هاجسها –فيما يبدو– السعي لتقديم معيار الاندماج في الواقع الأوروبي على غيره، وهي تَصدر عن فكرة غامضة عن موضوع الفتوى؛ لأنها تفترض أن هناك لوائح وتشريعات مستقرة، وتختزل الأمر بلوائح كل مستشفى التي تشكل وحدها المرجعية للطبيب. فإن لم توجد لوائح يحيل المجلسُ الطبيبَ إلى مبادئ طبية وإنسانية عامة؛ من دون أن يعي أنه ليس ثمة مبادئ متفق عليها في هذا الشأن؛ وأننا أمام حال تتعارض فيها جملة مبادئ، وأن المبادئ دومًا كلية، أما تطبيقاتها فتخضع لاجتهادات وتقويمات مختلفة، بحسب تعقيدات الواقع والمساحة المتاحة لاجتهاد الذي يقوم بتنزيل تلك المبادئ على الحالات؛ وهذا يعني أن المجلس الأوروبي يحيل الأمر إلى اجتهاد الطبيب نفسه، لأن المجلس يتعامل مع المسألة إجرائيًّا لا قيميًّا.

كما أن هذه المسألة ليست من اختصاص المستشفى أو الطبيب؛ بل ترجع إلى حقل الأخلاقيات الطبية؛ لأننا أمام مسألة معيارية وليست إجرائية أو تنظيمية، كما أن لها أبعادًا قانونية أيضًا، فجانبها الأخلاقي لا يتصل فقط بتحديد من هو الأحق، بل يتصل بضمان تنفيذ المعايير والتوجيهات بشكل أخلاقي وعادل؛ لتجنب اتخاذ قرارات وتفضيلات فردية (من الطبيب) أو إدارية (من المستشفى)؛ أي يجب أن يناط القرار بجهة أخرى غير الطبيب وإدارة المستشفى، وبتوجيهات سلطة أعلى؛ ما دمنا نتحدث عن صيانة الأرواح.

يعيدنا المجلس مجددًا إلى معيار "الأسبقية" في حال وقوع حيرة من الطبيب، من دون توضيح أسس ومعايير الترجيح، ولا سبب الحيرة، وهل تساوى المرضى من كل وجه حتى يُلجَأ إلى الأسبق منهم؟ وهل الأسبقية نفسها معيار قيمي؟ ولو عدنا إلى أصل جواب المجلس – وهو "اتباع اللوائح"– فإننا لا نجد –حتى الآن– قواعد ومبادئ متفقًا عليها في هذه الحال، بحيث يجري الامتثال لها في المستشفيات؛ فنحن نتحدث عن حالة طارئة شكّلت معضلة من أعقد المعضلات الأخلاقية، اليوم، سواء لجهة تطور التقنيات الحديثة أم لجهة تقدم النقاشات الأخلاقية وخطابات حقوق الإنسان؛ إذ إنها تردنا إلى خيارات تبدو بدائية وتنتمي إلى إمكانات الأزمنة ما قبل الحديثة.

في إيطاليا مثلاً؛ اعتُمد معيار السن بإعطاء الأولوية للشباب، وفي ألمانيا رُفضت المفاضلة بين المرضى على أساس العمر والحالة الاجتماعية. ولكن إن انعدمت الخيارات ولم يبق إلا خيار الاختيار –الذي هو "شرّ لا بد منه" لعدم كفاية الأجهزة وكثرة المرضى الذين هم بحاجة إلى عناية مركزة– فإن الوثيقة الألمانية تقدم هنا ثلاثة شروط للتوقف عن تقديم العلاج الفائق أو المركّز، وهي: أن يدخل المريض فعليًّا في مرحلة الموت، وأن يكون ميؤوسًا من علاجه، وأن يكون البقاء على قيد الحياة لا يمكن ضمانه إلا بالبقاء في العناية المركزة. ويجري تقويم حال المريض وفق معايير خمسة حددتها تتصل بطبيعة الخطر الذي يهدده، وهي: درجة الوعي، فقدان الدم، درجة الحرارة، مدة المرض، وحجم الألم.

أشارت "شيري فينك"، في مقال لها نشرته "نيويورك تايمز"، إلى أن الحكومة الفدرالية الأميركية لم تقدم –حتى الآن– مبادئ توجيهية للتقنين في ظل تفشي الفيروس، في حين أن النقاش يدور بين مسؤولين من مختلف الولايات والجمعيات الطبيّة والمستشفيات حول خططهم الخاصة، أي أن المجال سيكون مفتوحًا على قرارات مختلفة جدًا بهذا الشأن. فقد شهدت بعض الولايات الأميركية –التي انتشر فيها الفيروس كألاباما ويوتا وتينيسي– اقتراحًا مفاده تَرك أشخاص معينين من دون جهاز تنفس صناعي؛ عند عدم توفر ما يفي بحاجة جميع المرضى، وتشمل قائمة المتروكين مرضى الشلل الدماغي، والتوحد، والخرف المتقدم.

الإشكال الثالث أنه غاب عن هذه الفتاوى أن النقاش يدور حول "حالة طوارئ"، وهي ليست حالًا مستقرة أو ثابتة؛ فانتشار الوباء يحدث بصورة مفاجئة ومفتوحة على متغيرات يومية كما نشاهد في فيروس كورونا، مما يعني أنه يمكن الحديث هنا عن إعادة تقييم مستوى توفر الأجهزة الطبية المتاحة بشكل يومي؛ لتقييد اللجوء إلى خيار حرمان بعض المرضى من الرعاية الواجبة قدر الإمكان وبناءً على حسابات دقيقة. ولو ناقشتْ الفتاوى السابقة القيم وكيفيات تنزيلها والمفاضلة بينها لأفسحت مجالاً لهذه الجزئية؛ بدل الحديث عن توجيهات عامة غير منضبطة.

الإشكال الرابع غياب الإطار النظري عن الفتاوى السابقة، كما غياب وضع المعايير المنضبطة التي يتطلبها تقويم حال تطبيقية محددة؛ فالمفتي يتحمل جزئيًّا مسؤولية تطبيقات فتواه، وهو أمرٌ يختلف عن مناقشة مسألة مجردة أو كلية في حقل الأخلاق النظرية. ونعني بالإطار النظري هنا مناقشة القيم الحاكمة لهذا الموضوع وطرق المفاضلة بينها، وتقديم

التعليلات اللازمة أخلاقيًّا وفقهيًّا، وهذا الإطار ضروري لتقويم الحالات التطبيقية بحيث يجري تنزيله عليها وبناء التعليلات اللازمة التي تجعله أخلاقيًّا أو غير أخلاقي، وعدم الاكتفاء بالعبارات العامة والمبهمة مثل (يجب ولا يجوز)؛ لأن هؤلاء المفتين ليسوا شارعين، وليست أقوالهم بذاتها سلطة معيارية؛ بل حججهم وتعليلاتهم هي التي تكتسب صفة الحجية والمعيارية أو لا تكتسبها، وهذه نقطة منهجية ستكون صعبة على المولعين بشخصنة الأقوال والفتاوى.

كان يمكن للمفتي أن يصوغ موقفًا أكثر جدية لو حدد القيم المركزية التي تجري الموازنة بينها هنا، وهي: حفظ الحياة، والعدل والمساواة؛ لأن التَخَيُّر بين المرضى سيُخلّ بهذا، ثم سيلجأ إلى استفراغ الوسع لتحقيق أعلى المصالح لأكبر قدر ممكن من الناس، ثم ضمان تنفيذ ذلك بإنصاف وشفافية، ثم يكون النقاش بعد ذلك فيما إن كان هذا المعيار أو ذاك هو الأصلح لتحقيق هذه القيمة. وسيكون التقويم والاستدراك ممكنًا لاحقًا بحسب مسار التطبيقات وما ستكشفه من معلومات جديدة؛ لأن القيمة حاضرة وهي المعيار لا الشخص ولا الحكم (يجوز أو لا يجوز)، وهذا داخلٌ في معنى "سددوا وقاربوا"، وهي عملية أخلاقية مستمرة تتوخى تحقيق قيمة التسديد وقيمة الاقتراب قدر الإمكان من السداد؛ إن لم يمكن تحقيقه كاملاً.

انشغل المفتي هنا بمسألة جزئية وهي: "مَن الأحق بالتقديم في العلاج؟"، ولكن غاب عنه أن الحديث يدور حول "العناية المركزة" فقط؛ لقلة عدد الأجهزة أو الأسرّة، ولكن لا يعني هذا إهمال هؤلاء المرضى كليًّا؛ بل يجب تقديم أشكال أخرى من الرعاية الممكنة، حتى لأولئك الميؤوس منهم أو المشرفين على الهلاك، وهو موضوع حديث بدأ يلقى اهتمامًا ويسمى الرعاية التلطيفية(Palliative care) ، والمفتي مِن أَولى الناس بالحديث عن هذا النوع من الرعاية.

كان الخيار الأول للمجلس الأوروبي هو اتباع لوائح وتعليمات المستشفى؛ رغم أن وظيفته ليست إرشاد الناس إلى الواجب عليهم قانونًا أو مهنيًّا (نسميه واجبًا صناعيًّا)، بل بيان الواجب الديني والأخلاقي في هذا الخصوص؛ لأن مبناه على تحديد إرادة الشارع التي يترتب عليها الإثم والثواب، لا التمحور فقط حول اتباع القوانين واللوائح الإدارية التي تدور على الأمان من العقوبة، أو المحافظة على الوظيفة داخل المستشفى بعدم مخالفة لوائحه. فمن المهم هنا أيضًا القول إن مناقشة قيمة الحياة تتضمن التمييز بين إنقاذ الحياة نفسها وإطالة أمد الحياة لمدة متوقعة، والمفاضلة بين ما إن كانت الحياة بذاتها قيمة، أو أن القيمة ثابتة لنوعية الحياة؛

أخيرًا؛ فإن الالتزام بالتعليمات الوقائية كالعزل الاجتماعي الطوعي والحجر الصحي وغسل اليدين وغيرها، وإن لم تظهر فائدتها القطعية في العصمة من الفيروس؛ لها فائدة أخرى تتصل بهذا النقاش، وهي أنها تُكسِب مزيدًا من الوقت لتجنب الوصول إلى حالة الطوارئ هذه التي نواجه فيها خيارات صعبة بسبب نقص الأجهزة، ومن ثم تضييق الفجوة بين الحاجة الطبية والعلاج المتاح.

التدين الشعبي وأزمة كورونا[20]

2020/4/7

نعتقد بوجود سلطة للتدين الشعبي، مرة على نحو الرمزية، وأخرى مادية فاعلة وواضحة بشكل كبير في المجتمع، يصعب أحيانًا توجيهها والسيطرة عليها، حتى في أشد الظروف التي تهدد المتدين نفسه. وربما مرد ذلك إلى هيمنة العقل الجمعي لدى الجماعات، وشعورهم أن مثل هذه الممارسات والطقوس الدينية جزء من هويتهم، بل وكرامتهم. نحاول في هذه الدراسة، مقاربة التدين الشعبي مع ما نشهده من أزمة صحية، متعددة الجوانب، فلا غرابة إن اتفقنا مع من يرى: أن عالم ما قبل وباء وكورنا ليس كما بعده.

التدين الشعبي

هو إجابة فردية ضمن سياق جماعي لحاجة عميقة تفترض تلبية الواجب الديني الموروث، وهو نمط لا يميل في الغالب إلى المعارضة، ويتقيد ولو ظاهرياً بالولاء للسلطة السياسية القائمة، والتقاليد السائدة من دون البحث عن شرعيتها ومناقشة أسسها، أو هو "جملة المعتقدات والممارسات الدِّينية التي تُمارس باستقلالٍ نسبيٍ عن المؤسَّسة الدِّينية الرسمية، وهو شديد التنوع بحسب البيئات ونظُم المجتمع والأحوال الاقتصادية والأنماط المعيشية. كما أنَّه يتمركزُ عادة حول المزارات، أو أضرحة الأولياء والقدِّيسين الصَّالحين، ممن لهم أصول في التَّاريخ، وبالمثل حول شخصيات أسطورية غير تاريخية".

يشير المصطلح في بعض المجتمعات إلى عدد من المعتقدات، والممارسات، منها:

1- التصوف.
2- زيارة الأولياء.
3- الاحتفالات، والطقوس، والشعائر الجماعية.

إن **الشعائر والطقوس – بحسب مارك أوجيه – تعبر عن تكافل المجموعة وهي تقويها، ولا وجود لدين من دون كتاب الطقوس. هذا يعني أن للطقوس والشعائر أهمية كبيرة في مكونات الدين، ومن الصعب غياب أو تغييب أدائها ولو لمدة معينة. لذلك، نجد المعتقد الديني الطقسي أو ما يمكن تسميته بـ "الضمير الديني الشعبي" في أزمة كورونا حاضرًا وبقوة.**

[20] موقع مؤمنون بلا حدود

مداخل دراسة التدين الشعبي

نموذج التدين الشعبي هو أرض وسطى بين الدين والعرف؛ فالتناقض المتبادل بين الدين والمعتقدات الشعبية هو ما يعين إطار الدين الشعبي ومادته بالنظر إلى أن هذه المعتقدات تقترب من تكوين ديني اعتقادي بوصفه نظامًا لصيقًا للدين يرتكز إلى:

أولًا– الاستحضار الكبير للقداسَة، وعلى التقليد النوعي، والممارسات التوفيقية.

ثانيًل– تقابلية العلاقة مع علماء الدِّين الرسميين.

ثالثًا– التَّفسيرات الرَّمزية، والحضور الكبير للجانب الطقسي، بل الاعتماد على الرأسمال الرمزي للجماعة والطائفة الدينية.

رابعًا– تمركز التعبُّد حول شخص الولي، والقدِّيس أكثر منه على النُّصوص والتَّعاليم المجرَّدة، والإيمان بالعجائب الخارقة وبالكرامات والبرَكَة، وتأويل النُّصوص تأويلًا خاصًا.

إن الشعبي مقولة بُنيت أساسًا على العلاقات الرمزية بين الثقافة "الرفيعة" و"الهامشية" ولا يمكن الاقتصار في وصفها على مقولات البنية الاقتصادية والاجتماعية وحدها. لقد مالت أغلب القطاعات الشعبية الفقيرة إلى نمط التدين الشعبي، كذلك ترسخ هذا النمط من التدين في المجتمعات التقليدية الحضرية، وفي أغلب الأحوال، فإن هذا الأمر راجع إلى أسباب اجتماعية وثقافية واقتصادية.

محددات التدين الشعبي

يمكن بالنظر إلى عدد من المعايير والضوابط الموضوعية أن نميز بين أنماط مختلفة للتدين بحسبانه ظاهرة تاريخية اجتماعية، يأتي في مقدمة هذه المعايير:

- درجة حضور النص الديني ومستواه في الممارسات والطقوس التعبدية.
- غياب النص ثم غياب التأويل، أو اعتماد تأويل أو قراءة خاصة منتجة في إطار الممارسة الشعبية المستمرة.
- في بعض الأحيان، يتجاوز هذا النمط من التدين النص والعمل بشكل صريح وعلني مخالف للنص برعاية رموز هذا النمط من التدين؛ أي من دون الرجوع للمؤسسة الدينية الرسمية، المعترف بها.
- هيمنة التقديس، وإضفائه على كل ممارسة شعبية، في إطار ديني.
- الولاء للرمز الديني بشكل أو بآخر.

إن الرموز الدينية تفعل فعلها بأن توجد لدى المُتعبّد مجموعة من الحالات النفسية الخاصة (من الاتجاهات، أو القدرات، أو الميول، أو المهارات، أو العادات، أو نقاط الضعف أو الاستعدادات التي تصبغ أفعاله ونوعية تجربته بصبغتها المعهودة). ومع قولنا، إن التدين الشعبي غالبًا ما يتجاوز النص، أو يقوم بتأويله تأويلًا يناسب المحيط والظرف المعاش، إلا أنه في الوقت ذاته يظهر ولاءً كبيرًا للرمز الديني، ربما غير حاضر في بيئة التدين الرسمي أو المؤسسي، ولأن للرّمز هي إرساء رابطة علاقة بين الناس، بتلك الوظيفة كمرجع يحدّد الرمز فعلاً اجتماعياً. فمنذ م. موس نُظر إلى الرمزيّة على أساس أنها واقعة داخل المجتمع. وحدها الوظيفة معتبرة في تلك الرؤية الإناسية المرجعية للرمز.

لكن مع هذا الولاء الكبير للرمز الديني، المتمثل بشخصية تتمتع بالورع والتقوى، نجد الولاء للمعتقد المتجذر تاريخيًا، عبر الطقوس وغيرها، أحيانا يفوق الولاء الرمزي، ولذلك نشهد أحيانًا ما يرقى للخرق في تراتبية واستمرارية الولاء وتجاوز الرمز، إذا ما شعر اتباع التدين الشعبي حصول ما يعدونه تهديدًا لهويتهم التاريخية المتجذرة في النفوس.

لهذا تصبح الثقافة الخاصة، والطقوس في أهم جوانب تلك الثقافة، ملجأ للجماعات، فتؤدي دورًا أساسيًا في تصليبها، أيًّا كانت دينية أو وطنية أو غيرهما، وهي تمثل درعا لحمايتها، ووسيلة لاستمرارها وتوريثها وتعميقها وانتشارها. من هنا يكمن الاستبسال لدى كثير من المنتمين إليها عبر المشاركة في تلك الطقوس وإحيائها، والدفاع عنها بكل الشراسة الممكنة. إن حماية الهوية يعني تمتين خطوط الدفاع الأولى التي تمثلها الطقوس، وهذا أمر طبيعي جدًّا، فهي تحمل في ذاتها دفاعًا عن الذات الشخصية، وعن الجماعة: حاضرها ومستقبلها.

أزمة كورونا وسلطة التدين الشعبي

يرى **ميشال مسلان**: "أن الشيء المقدس هو قبل كل شيء رمز"، وهذا يعني مدى التداخل بين المقدس والرمز، لكن يبدو أن أحدهما يرتبط بالآخر، وإذا أخذنا بالمفهوم الواسع لمصطلح السلطة، سواء كان في مجال علم النفس أم الاجتماع أم السياق الديني، نجد هناك نوعًا من التأثير والقوة، بل والإمرة والطاعة، التي هي من مؤيدات وحضور السلطة في سياق التدين الشعبي.

في السياق ذاته، **كشفت أزمة كورونا مدى الاختلاف في الأوساط الشعبية والجدل الذي يدور حول القداسة والطقوس والعلم وعالم الغيبيات. ففي بداية انتشار الوباء في الصين، بعض الأوساط الشعبية كانت ترى أنه عقاب رباني!! وحين ظهر في بلدان العالم الإسلامي حاولوا تأويل المقولة وتغييرها، ثم ربط بعضهم بين ظهور هذه الجائحة، وبين أخبار وأحداث آخر الزمان التي تزخر بها المدونات الروائية والحديثية، حتى وصلنا في هذا الوقت، إلى الاعتراض على طريق دفن المتوفين بسبب الفايروس، على أكثر من مستوى.** ولعلنا نلخص ذلك في الآتي، مما يدل على غلبة وتفوق المعتقد والحضور الطقسي في صلب الممارسة الدينية الشعبية، حتى لو كان على حساب النفس والمجتمع.

لعل من أوضح الأمثلة على ذلك، ما حصل من جدل كبير في الأوساط الاجتماعية، وحتى قسم من الجهات الرسمية التي تخشى سلطة التدين الشعبي حول طريقة دفن المتوفى بسبب الفايروس وحكم تكفينه، مما استدعى تدخل المرجعية الدينية، بوصفها المثال الحي للتدين الرسمي النصي. فقد حصل نوع من سوء التدبير والتخطيط في إدارة الأزمة، خصوصًا ما يتعلق بدفن المتوفين بوباء كورونا، حين أصبح الموضوع مثار جدل ورفض من الجهات في تحديد مكان الدفن، وكذلك في جواز التكفين من عدمه؛ لارتباط الموضوع بنقل الفايروس لمن يتصدى للتكفين والدفن، وقد رصدت بعض وكالات الأنباء الصحفية ومواقع التواصل الاجتماعي تذمر بعض المعنيين من ذلك.

يقول المتحدث باسم وزارة الصحة "**سيف البدر**"، في فيديو نشره على مواقع التواصل الاجتماعي، إن منع الدفن "قضية لا تنسجم مع الأعراف الدينية والإنسانية التي تشدد على أن إكرام الميت دفنه". ورأى أن مسألة انتشار المرض من الأموات "غير مستندة إلى حقائق علمية"، وأن هناك إجراءات تتخذها الدولة للحد من المخاطر "كالتعقيم ولف الجثة بأكياس وتابوت خاص." وبعد انتشار هذا الموضوع وحصول نوع من الإرباك وعدم اتخاذ الجهات الرسمية القرار الواضح، في هذه المسألة وخشيتها من السطوة الشعبية، وحساسية الموقف، أفتت المرجعية الدينية في مدينة النجف العراقية بوجوب تكفين الميت بوباء كورونا بالأثواب الثلاثة (الأكفان) وعلى السلطات المعنية تسهيل دفنه في المقابر العامة، ولا يجوز حرق جثمانه، مما جعل السلطات الحكومية المعنية تجهيز طاقم متخصص لهذه المهمة، وكذلك تخصيص قطعة أرض لهذا الغرض، وبالفعل جرت الأمور بشكل انسيابي إلى حد ما.

كذلك انسحب الأمر، لكن بشكل أقل، في إقامة مجالس الفاتحة على روح المتوفين بسبب الفايروس، حيث الموضوعية تقتضي القول: إن أغلب الأوساط الشعبية، التزمت بعدم إقامة مجالس الفاتحة، سواء كان للمصابين بالوباء أو بغير الوباء، التزامًا بتعليمات عدم كسر حظر التجوال. وربما يعزى ذلك الالتزام، لأن المرض أصبح حقيقة على أرض الواقع، لكن ظهرت حالات قليلة أصر أصحابها على إقامة مجالس الفاتحة مع إخفاء سبب الوفاة، مما اضطرت الجهات الحكومية لتنبيه الحاضرين والتوجيه بزيارة المراكز الصحية لغرض الفحص، نتيجة ملامستهم لذوي المتوفى خشية انتقال الفايروس.

كذلك من صور التعاطي مع الرمز الديني، الذي هو سمة بارزة في التدين الشعبي، والتي تجلت في أزمة كورونا وما تبعها من حظر للتجوال سبب انقطاع أرزاق كثير من الناس الذين يعتمدون على المردود اليومي، وما إن صدرت توجيهات خطية من المرجعية (السيد علي السيستاني)، حتى تسابقت قوافل المساعدات الغذائية، وبشكل لافت في مختلف الأحياء والقصبات السكنية في عموم العراق، ولرب سائل يسأل، هل مساعدة المعوزين – خصوصًا وقت الأزمات – تحتاج إلى فتوى أو توجيه من الزعيم الروحي؟ بالتأكيد، إن مثل هذه التوجيهات التي تدعو إلى التكافل متوفرة وواضحة في النصوص

الدينية والسيرة الخاصة بالنبي وغيره من الأئمة والأولياء والصالحين، لكن كما بيّنا في هذا النمط من التدين إنه – في الغالب – لا يستحظر النص أو تأويل النص، بل يعتمد التعاطي المباشر على نحو الممارسة العملية.

من المعلوم أن نمط التدين الشعبي لا يقتصر على جغرافيا محددة، بل يشمل جميع الديانات والطوائف في مختلف العالم؛ فقد لجأ بعض المؤمنين لكتابة نصوص دينية على أبواب البيوت والمنازل أو رسم الرموز الدينية وأسماء الأولياء أو حتى رسم الصليب بالنسبة إلى المسيحيين. وفي تقديري هذا نوع من التماس الاطمئنان النفسي للشخص المتدين والمعتقد، لكن يمكن وضعه في التساؤل الأكبر في قابلية الإنسان للاستشفاء بالدين. ويعتقد غيرتس: "أن النظم الرمزية هي أنماط ثقافية أيضًا، وهكذا قد ترى الأنماط الثقافية وكأنها نماذج للواقع مثلما هي نماذج من الواقع".

إن أزمة فايروس كورونا، كغيرها من الأزمات، كشفت عن ممارسات متعددة ومتنوعة، يمثل بعض منها صورة مشرقة في التكافل والتعاون، حتى لو كان بتوجيه معين، وكشفت أيضًا عن ممارسات لا ترتضيها حتى النصوص الدينية التأسيسية، وربما لا يمكننا وضعها في إطار ممارسات شعبية دينية، مثل: عدم احترام الخصوصية... إذ شاهدنا في أغلب الدول العربية والإسلامية، ومنها العراق، انتهاكًا صارخًا للخصوصية، فعند اكتشاف أو الشك بوجود حالة مرضية تتعلق بوباء كورونا، تأتي سيارة الإسعاف وتقوم بتصوير البيت، وكأن المصاب بالفيروس مجرم يلقى عليه القبض.

يبدو أن نمط التدين الشعبي يمكن أن يحدث أثرًا فاعلًا بما يملك من سلطة معنوية مؤثرة، فمثلما كان أحد الحلول لمواجهة الفكر المتطرف، يمكن الإفادة منه في مجالات أخرى عبر توجيهه توجيهًا صحيحًا، يخدم المتدينين به والمجتمع الذي ينتشر به، فأعتقد أن عماد التدين الشعبي هو "حضور الجانب الرمزي"؛ فالتدين الشعبي مثال واضح على الأنظمة الرمزية، لكنه بحاجة إلى الدراسة والنقد ووضع الحلول للعوائق الاجتماعية التي تطرأ عليه، ولعل أزمة كورونا مثال واضح على ذلك.

إن أزمة كورونا تفرض وبإلحاح إجراء مراجعة شاملة لأكثر من مستوى:

1- ديني، معرفي.
2- اجتماعي.
3- سياسي.
4- مستويات أخرى.

هذا يضعنا أمام مسؤولية كبيرة لمواجهة هكذا تحديات أمام سلطة رمزية اجتماعية.

ما بعد كورونا أخطر من الوضع الراهن[21]

2020/4/13

تحدّث "نعوم تشومسكي" المفكر وعالم الألسنية عما ينتظر البشرية في أثناء "الكورونا" وما بعده، في إطلالة استثنائية، ضمن حلقة خاصة في DiEM25 TV. حذر "تشومسكي" من السباق إلى حافة الكارثة المرعبة التي يجري إليها العالم، والمضاعفات الاقتصادية والاجتماعية التي يتسبب بها الوباء على مستوى البشرية بأكملها. وما يتهدد البشر من خطرين وجوديين وشيكين، أولهما تزايد تهديدات الحرب النووية، وثانيها تزايد مخاطر الاحتباس الحراري الذي سيتسبب بكوارث بيئية على مستوى الكوكب.

"تشومسكي" يعيش في عزلة ذاتية في منزله في توكسن بولاية أريزونا، شأنه شأن ملياري إنسان على الأقل، للاحتماء من عدوى "فيروس كورونا"، وهو يبلغ الواحد والتسعين عامًا، وينتمي إلى أكثر الفئات العمرية التي يتهددها الوباء الفتاك. لديه اليوم الوقت الكامل للتفكر والتأمل بما يحدث أو سيحدث مع هذه الجائحة التي أدت إلى إجراءات العزل المنزلي فضلاً عن الحجر الصحي ومنع التجول، ونزول الجيوش إلى الشوارع في العديد من بلدان العالم، وإغلاق الحدود بين مدن البلد الواحد وبين الكثير من دول العالم في أكثر عملية عزل قسري وحصار طوعي على مر التاريخ.

ولد "تشومسكي"، في العام 1928، نهاية الحرب العالمية الأولى وعايش الكثير من الأحداث التاريخية، ونجا من الحرب العالمية الثانية، كتب أول مقالة له في العاشرة من عمره عن الحرب الأهلية الإسبانية بعد سقوط برشلونة في العام 1938، وتحدث فيها بشكل خاص حول ما يشهده الناس من انتشار لا يرحم لـ"الطاعون الفاشي" في جميع أنحاء أوروبا محللاً إلى أين سيفضي هذا الوباء. يقول في معرض حديثه عن هذه المقالة: "اكتشفت لاحقاً، بعدما جرى تحرير الوثائق الداخلية أن محلل حكومة الولايات المتحدة في ذلك الوقت توقع أن تنتهي الحرب بانقسام العالم إلى الهواء الذي تهيمن عليه الولايات المتحدة والمناطق التي تسيطر عليها، ومنطقة أخرى تسيطر عليها ألمانيا في أوروبا. وتبين لي أن مخاوف طفولتي كانت في محلها."

يضيف:"هذه الذكريات تعود إليّ الآن. أتذكر خطابات هتلر في الراديو، لم أستطع فهم الكلمات حينها، لكن كان من السهولة أن أفهم المزاج العام، وأشعر بالتهديد الذي تحمله صدى الكلمات. وهنا يجب أن أقول إنني أشعر بالشيء ذاته عندما أستمع إلى خطابات ترامب اليوم، التي يتردد صداها في نفسي. ليس الأمر أنني أشعر بأنه فاشي، فهو ليس كذلك، فالفاشية لديها الكثير من الإيديولوجيا، لكني أرى فيه مجرد "معتل اجتماعي" مهرج لا يهتم سوى بنفسه، لكن المزاج

[21] موقع الإندبندنت بالعربيَّة

والمخاوف التي تثيرها كلماته متشابهة مع أيام طفولتي. وفكرة أن مصير البلاد والعالم في أيدي مهرج ومعتل اجتماعي مثل دونالد ترامب هو شيء مروع".

حافة الكارثة

إنّ فيروس كورونا التاجي خطير بما فيه الكفاية، لكن من الجدير بالذكر أننا نقترب من الرعب الأعظم، وهو السباق إلى حافة الكارثة، وهو حدث أسوأ بكثير من أي شيء حدث للإنسان عبر التاريخ. "ترامب" وأتباعه هم في صدارة هذا السباق نحو الهاوية. الهاوية التي تتمثل في الواقع بتهديدين هائلين وجوديين. الأول، التهديد المتزايد لاندلاع حرب نووية، والآخر، هو التهديد المتزايد للاحتباس الحراري. يمكن التعامل مع التهديدين، لكن لا يوجد الكثير من الوقت لتداركهما. الفيروس التاجي "كورونا" يمكن أن تكون له عواقب مرعبة، لا يمكن بعدها العودة إلى الوراء، حتى لو حدث التعافي والانتعاش. هكذا تأتي ذكريات الطفولة لتعود وتطاردني، ولكن ببعد مختلف".

يقول "تشومسكي" إنّه منذ انتخاب ترامب، يمكن رؤية ثلاثة أشياء: تهديد الحرب النووية، وتهديد الاحتباس الحراري، وتدهور الديمقراطية. ومع أن الديمقراطية هي السبيل الوحيد للتغلب على الأزمة إذا سعى الجمهور إلى السيطرة على مصيره، وإذا لم يحدث ذلك، وتركنا مصيرنا لهذا "المعتل الاجتماعي" سننتهي. هذا الخطر يقترب، وترامب هو الأسوأ بسبب قوة الولايات المتحدة الساحقة التي يترأسها. فهي الدولة الوحيدة القادرة على فرض عقوبات مدمرة والقتل وعلى الجميع أن يتبعوها، حتى أوروبا. قد لا تحب أوروبا في الواقع أعمال الكراهية وفرض العقوبات ضد إيران، لكن عليهم أن يتبعوا "المعلم"، ومن لا يمتثل له يطرد من النظام الدولي المالي والاقتصادي. هذا ليس قانون الطبيعة، بل هو قرار أوروبا أن تبقى تابعة لـ"المعلم السيد" في واشنطن، هي وبلدان أخرى كثيرة. ليس لديها خيار حتى.

بالعودة إلى فيروس كورونا التاجي، يرى "تشومسكي" أنه أحد أشد الصدمات العصر، ومن الجوانب القاسية لأزمة كورونا مواصلة استخدام العقوبات لزيادة الألم بوعي تام، ولجعل المعاناة أشد مرارة.

كوبا تساعد أوروبا

كما أنه يرى أن "بلاداً مثل كوبا تعاني من العقوبات، منذ اللحظة التي اكتسبت فيها الاستقلال، من المذهل أنها نجت واستطاع الكوبيون البقاء أحياء. لكن واحداً من أكثر الأمور سخرية الآن هو أن كوبا عرضت المساعدة على أوروبا. هذا شيء صادم ومثير للدهشة. ففي حين أن ألمانيا تتمنع عن مساعدة اليونان، نجد كوبا تقدم المساعدة إلى أوروبا في محنتها لمواجهة الفيروس التاجي كورونا. إذا توقفت عن التفكير ماذا يعني ذلك؟ لا توجد كلمات تصفه. كما لا توجد كلمات تصف ما يحدث في الشرق الأوسط، حين ترى آلاف الأشخاص فارين من مناطق مدمرة، ويُرسلون إلى الموت، عقوداً

وراء عقود. الأزمة أزمة حضارية، الغرب في هذه المرحلة مدمر، تعيدني هذه الأحداث إلى ذكريات الطفولة والاستماع إلى هتلر عبر الراديو وهو يهتف في الحشود الصاخبة."...

في نظر "تشومسكي" أن الإجراءات الاستثنائية التي تطبقها الحكومات من إغلاق للحدود الداخلية والخارجية، وحظر التجوال في بعضها، واستخدام الجيش في تطبيق إجراءات العزل، كما حدث أو يحدث في فرنسا وإسبانيا وإيطاليا ودول أخرى عديدة، قد تتسبب بتدهور الديمقراطية والنزوع إلى الاستبداد في كثير من مناطق العالم. يضاف إليها انهيار الأسواق والنظام الاقتصادي العالمي، واستخدام ترامب خطاب "الحرب" وماكرون أيضًا والعديد من السياسيين الأوروبيين والدول والتحدث عن الأطباء بوصفهم جنود الجبهة الأمامية بمواجهة "العدو" غير المرئي "الفيروس". الخطاب ذاته يجري استخدامه في وسائل الإعلام كافة حول العالم، مما يطرح تساؤلاً عن أثر هذا الخطاب في فرض حال من الاستبداد: هل يرى "تشومسكي" أن تقديم "الفيروس" كعدو هو فقط لإضفاء الشرعية على "حال الاستثناء الجديدة" أم ثمة ما هو أعمق في هذا الخطاب؟

تعبئة حربية

يرى تشومسكي: "أن التعامل مع أزمة الفيروس يتطلب التحرك بما يشبه التعبئة العامة في زمن الحرب. وهذا أمر غير مبالغ فيه. ففي بلد غني كالولايات المتحدة لديه الموارد للتغلب على المشكلات الاقتصادية والاجتماعية الفورية التي يتسبب بها التعامل مع الفيروس، كما حدث في الحرب العالمية الثانية حين أعلنت التعبئة العامة وقادت البلاد إلى دين كبير وأكبر مما هو متصور اليوم، لكنها كانت تعبئة ناجحة للغاية، عملياً تضاعف حينها التصنيع أربع مرات وأُنهض الكساد واستعادت البلاد القدرة على النمو. اليوم، نحتاج إلى أقل من ذلك للتعامل مع الوباء، نحتاج إلى عقلية الحركة الاجتماعية؛ عقلية الحركة الاجتماعية من أجل التغلب – وعلى المدى القصير– على أزمة شديدة تعّبر عن فشل ذريع للنيوليبرالية، واقتصاد السوق لا يكف عن التزايد. ويمكن هنا أن نتذكر كيف جرى التعامل مع إنفلونزا الخنازير، في العام 2009، وتعافى مئات الآلاف من الناس من الأسوأ، وأُوجد لقاح للقضاء على الوباء حين تحركنا بسرعة."

يضيف: "هذا لم يحدث اليوم، على الرغم من توفر المعلومات منذ ديسمبر/كانون الأول 2019، عن أعراض وباء فتاك غير معروف مسبباته، والتي قدمتها الصين إلى منظمة الصحة العالمية حين تفشى الوباء في "ووهان" وجرى تعميمها في العالم أجمع. كان تحرك ترامب وقادة أوروبا بطيئاً وغير مسؤول. ذلك لحسابات تجارية واقتصادية للنيوليبرالية التي تحكم العالم خشية الخسائر التي سيتسبب بها العزل الاجتماعي، وإغلاق المؤسسات والشركات وتعطيل الحياة العامة ولمنفعة هؤلاء الأثرياء. وبسبب عقلية اقتصاد السوق، فضلت شركات الأدوية تصنيع كريمات البشرة على إيجاد لقاح أو علاجات للأوبئة المحتملة لأنها أكثر ربحاً. هم كانوا يعرفون منذ تفشي "فيروس السارس" بوباء كورونا المحتمل. فقد أُجريت أبحاث منذ فيروس السارس وحُدّد التسلسل الجيني لسلالة سارس، والتي ينتمي إليها فيروس كورونا كتطور جيني

محتمل للسلالة جرى التأكد منه. ماذا حدث؟ لم تعمد الحكومات وشركات الأدوية العملاقة على الانكباب لتصنيع العلاجات أو اللقاحات لحماية الناس."

شركات الادوية

"حين سلمنا مصيرنا للاستبداد الخاص لشركات الأدوية التي لا تخضع لمساءلة الجمهور، يقول تشومسكي، ولمصلحة نفعية للنيوليبرالية المتوحشة التي تتحكم باقتصاد السوق وفلسفة العرض والطلب على مستوى العالم، وليس في الولايات المتحدة فقط، حيث الطاعون الجديد المتمثل في النيوليبرالية يقودنا إلى الهلاك. لقد تمت خيانتنا من النظم السياسية التي تتحكم بها النيوليبرالية ويديرها الأغنياء ولا خيار لنا سوى "الخروج من الطاعون النيوليبرالي" للتعامل مع الأخطار المقبلة التي تلوح في الأفق في العالم. فالهند مثلاً حيث يقبع أكثر من مليار في العزلة الاجتماعية، ماذا سيحدث للذين يعيشون كل يوم بيومه "من اليد إلى الفم"؟ سيتضورون جوعاً ويموت المعزول وحيداً." يضيف:"ماذا عن الاحتباس الحراري في جنوب آسيا، حين تواصل حرارة المناخ بالارتفاع، ومع ازدياد مخاطر الجفاف وشح المياه ونشوء نزاعات متعددة في العالم حول المياه، هناك بلدان مثل جنوب آسيا قد تصبح مناطق غير قابلة للعيش لعقود."

وإذ يتساءل حول مصير البشرية بعد كورونا، يرى تشومسكي أن الفيروس التاجي حمل معه أشياء إيجابية هي إشارات تحذيرية لنا من الخطر الداهم الذي يلوح في المستقبل القريب ليحثنا على التحرك والاستعداد، بخاصة أن الديمقراطية في خطر بسبب حال الاستثناء التي يتحكم فيها "قلة قليلة هم أسياد النيوليبرالية". وسيواصلون التحكم- برأيه – إن لم يُجب عن سؤال وجودي يطرحه تشومسكي بإلحاح الآن تحت السحابة السوداء لهذه الأزمة وهو: أي عالم نريد أن نعيش فيه؟

يرى تشومسكي "أن أمامنا خيارات عديدة تتراوح "بين تركيب استبدادي للغاية" في العالم تتحول فيه الدول إلى أكثر وحشية، أو خيار الراديكالية وإعادة إعمار المجتمع، أو خيارات أخرى كالعودة إلى المصطلحات الإنسانية المعنية بالاحتياجات البشرية وعدم تغليب الصوت الاقتصادي لمنفعة النيوليبرالية، التي سيسعدها التضخم الهائل لعنف الدولة الذي بدأت ربما تجلياته تظهر تحت ذريعة التعامل مع أزمة فيروس كورونا، لا سيما إن طالت الأزمة. "إن الاستماع إلى ما سمّوه "الصوت الاقتصادي لليبرالية الجديدة في عشرينيات القرن الماضي، يقول تشومسكي، أسعد الفاشية البدائية في فيينا وقامت الدولة النمساوية بتحطيم النقابات العمالية وحطمت الديمقراطية. وهو ما حدث في تشيلي على يد بينوشيه الذي قام بتركيب قاتل لديكتاتورية وحشية بحجة حماية الاقتصاد". لذا من المتوقع- باعتقاده – أن يتصرف النظام النيوليبرالي العالمي بهمجية مفرطة عبر دول قوية عنيفة استبدادية.

كابوس رهيب

أزمة كورونا، باعتقاد تشومسكي، هي مجرد جزء واحد من كابوس رهيب مقبل، وإن لم يشرع الناس على الفور في تنظيم أنفسهم ويتضامنوا في ما بينهم لتحقيق عالم أفضل بكثير من العالم الذي يعيشون فيه، فهم سيواجهون مصاعب هائلة لطالما أعاقت طريق الحق والعدالة، كما الاستعداد للتعامل مع الخطرين الوجوديين للحرب النووية والتغيرات المناخية والكوارث التي سيتسبب بها الاحتباس الحراري، والتي "لن نتعافى منها ما لم نكن حازمين في مواجهتها حين نصل إلى تلك المرحلة، وهي باتت وشيكة الحدوث."

يشدد "تشومسكي" على لحظة تاريخية حاسمة للإنسان، ليس فقط بسبب فيروس كورونا، بل لأن الفيروس يحضرنا للوعي بالعيوب العميقة التي تواجهها البشرية. "فالعالم معيب وليس قوياً بما فيه الكفاية للتخلص من الخصائص العميقة المختلة في النظام الاقتصادي والاجتماعي العالمي كله، واستبداله بنظام عالمي إنساني كي يكون هناك مستقبل للبشرية قابل للبقاء." ويعتقد تشومسكي أن فيروس كورونا "علامة تحذير ودرس للبشرية، وعلينا أن نبحث في الجذور التي تؤدي إلى الأزمات، التي ربما تكون أسوأ مما نواجهه اليوم، والتحضير لكيفية "التعامل معها ومنعها من الانفجار!"

كما يسأل تشومسكي: "في الوقت الذي تزداد فيه المسافة الاجتماعية في إجراءات العزل المنزلي والحجر الصحي والتباعد الاجتماعي بين ملايين البشر في البلد الواحد، أو بين مليارات الأشخاص عبر العالم، كيف يمكن الحديث عن خلق حركة اجتماعية نشطة لتواجه ما نعيشه اليوم أو ما هو مقبل وقريب جداً من تهديدات وجودية؟ قد يبدو هذا الحديث غير واقعي، وقد يتصور بعضهم أن عصر الإنترنت كفيل بتسهيل الأمور، بل قد يرى أن العزلة الاجتماعية بدأت قبل كورونا بكثير وقد تسبب بها الاستخدام المفرط للهواتف الذكية المرتبطة بالإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي وكل تكنولوجيا المعلومات لا سيما بين أوساط الشباب، لكنها قد تكون هي المخرج والوسيلة إذا أحسن استخدامها لتنظيم الصفوف والتضامن الاجتماعي لخلق حركة اجتماعية واسعة النطاق، إن تمكن الناس من استخدام هذه التقنيات استخداماً جيداً في زمن العزل المنزلي والتباعد الاجتماعي، للانضمام والاستقطاب والتعاون والتنسيق والتشاور المتعمد، على الرغم من العوائق التي سيتسبب بها توقف الإنترنت لفترة من الوقت. لكن تشومسكي يؤمن أن الناس سيجدون طريقهم، وسيعثرون على وسائل أخرى للاستمرار وتوسيع الأنشطة وتعميقها وترميم انكساراتها ولملمة جروحها، ليبنوا عالماً جديداً قابلاً للعيش فيه. يكفي أن نمتلك الإرادة والعزم والتصميم! يكفي ألا نفقد الأمل".

عالم ما بعد كورونا- سوف يسرع الوباء التاريخ بدلاً من إعادة تشكيله

2020/4/9

إننا نمر بما هو أزمة كبيرة بكل المقاييس، لذا من الطبيعي الافتراض أنها ستثبت أنها نقطة تحول في التاريخ الحديث. في الأشهر التي تلت ظهور COVID-19 ، المرض الناجم عن الفيروس التاجي الجديد، اختلف المحللون حول نوع العالم الذي سيتركه الوباء في أعقابه. لكن معظمهم يجادلون بأن العالم الذي ندخله سيكون مختلفًا، بشكل أساسي، عما كان موجودًا من قبل. يتوقع بعضهم أن يؤدي الوباء إلى نظام عالمي جديد بقيادة الصين؛ يعتقد بعضهم الآخر أنها ستؤدي إلى زوال زعامة الصين. يقول بعضهم إنها ستنهي العولم ؛ يأمل بعضهم الآخر أن تكون فاتحة لعصر جديد من التعاون العالمي. ولا يزال بعضهم يتوقع أنها ستفوق القومية وتقوض التجارة الحرة، وتؤدي إلى تغيير النظام في مختلف البلدان – أو كل ما سبق.

لكن من غير المحتمل أن يكون العالم الذي يتبع الوباء مختلفًا جذريًا عن العالم الذي سبقه. سوف لن يغير هذا الوباء الاتجاه الأساسي لتاريخ العالم كثيرًا كما يسرعه. لقد كشف الوباء والاستجابة له عن الخصائص الأساسية للجغرافيا السياسية وعززها اليوم. ونتيجة لذلك، تعدّ هذه الأزمة بأن تكون نقطة تحول أقل من كونها محطة فاصلة على طول الطريق التي كان العالم يسير عليه خلال العقود القليلة الماضية.

من السابق لأوانه التنبؤ بموعد انتهاء الأزمة نفسها، سواء في غضون ستة أو 12 أو 18 شهرًا ، سيعتمد التوقيت على درجة اتباع الأشخاص للمبادئ التوجيهية للمسافة الاجتماعية والنظافة الصحية الموصى بها، ومدى توافر اختبارات سريعة ودقيقة ومعقولة التكلفة وعقاقير مضادة للفيروسات ولقاح، ومدى الإغاثة الاقتصادية المقدمة للأفراد والشركات.

مع ذلك، فإن العالم الذي سيخرج من الأزمة سيكون معروفًا..تضاؤل القيادة الأمريكية، تعثر التعاون العالمي، خلاف القوى العظمى: كل هذه السمات ميّزت البيئة الدولية قبل ظهور COVID-19 ، وأدى الوباء إلى تغذيتها أكثر من أي وقت مضى، فمن المرجح أن تكون سمات أكثر بروزًا في العالم بعد ذلك.

العالم ما بعد الأمريكي

كانت إحدى سمات الأزمة الحالية التراجع الواضح في القيادة الأمريكية. لم تحشد الولايات المتحدة العالم في محاولة جماعية لمواجهة الفيروس أو آثاره الاقتصادية، كما لم تحشد العالم ليحذو حذوها في معالجة المشكلة في الداخل. بينما تعتني دول أخرى بنفسها بأفضل ما يمكنها أو تلجأ إلى الذين تجاوزوا ذروة العدوى، مثل الصين، للحصول على المساعدة. لكن إذا كان العالم الذي يتبع هذه الأزمة سيكون عالمًا تهيمن فيه الولايات المتحدة بشكل أقل – فمن المستحيل تقريبًا تخيل أي شخص يكتب اليوم عن "لحظة أحادية القطب" – فهذا الاتجاه ليس جديدًا. لقد كان واضحا منذ عقد على الأقل.

إلى حد ما، هذا نتيجة لما وصفه فريد زكريا بأنه "صعود الباقي" (والصين على وجه الخصوص)، مما أدى إلى انخفاض في الميزة النسبية للولايات المتحدة، على الرغم من استمرار قوتها الاقتصادية والعسكرية المطلقة في النمو. ولكن حتى أكثر من ذلك، فهو نتيجة تعثر الإرادة الأمريكية بدلاً من تراجع القدرة الأمريكية. فقد أشرف الرئيس باراك أوباما على الانسحاب من أفغانستان والشرق الأوسط. واستخدم الرئيس دونالد ترامب في الغالب القوة الاقتصادية لمواجهة الأعداء، لكنه أنهى بشكل أساسي الوجود الأمريكي في سوريا، ويسعى إلى القيام بالأمر نفسه في أفغانستان، وربما الأكثر أهمية، لم يبد اهتمامًا كبيرًا إما بالتحالفات أو بالحفاظ على الدور التقليدي للولايات المتحدة في معالجة القضايا عبر النزعة الوطنية الطاغية وقبل وقت طويل من تدمير COVID-19 للأرض، كان هناك بالفعل انخفاض حاد في جاذبية النموذج الأمريكي.

كان احتمال هذا التغيير جزءًا كبيرًا من جاذبية رسالة ترامب "أمريكا أولاً"، والتي وعدت بأن الولايات المتحدة ستكون أقوى وأكثر ازدهارًا إذا فعلت أقل في الخارج وركزت طاقاتها على القضايا المحلية. ضمنيًا، في هذا الرأي كان الافتراض أن الكثير مما فعلته الولايات المتحدة في العالم كان مسرفًا وغير ضروري وغير مرتبط بالرفاهية المحلية. بالنسبة إلى العديد من الأمريكيين، من المرجح أن يعزز الوباء هذا الرأي على الرغم من حقيقة أنه يجب بدلاً من ذلك أن يسلط الضوء على كيفية تأثر الرفاه المحلي ببقية العالم. سوف يقولون إن على الولايات المتحدة أن تركز على تصحيح نفسها وتكريس الموارد للاحتياجات في الداخل بدلاً من الخارج، من أجل الزبدة بدلاً من الأسلحة. هذا خيار زائف، حيث تحتاج البلاد ويمكنها تحمل كليهما، ولكن من المحتمل أن تتم مناقشته على حد سواء.

إن قوة المثل الأمريكي هي القوة ذاتها مثل خيارات السياسة الأمريكية. قبل وقت طويل من تدمير COVID-19 للأرض، كان هناك بالفعل انخفاض حاد في جاذبية النموذج الأمريكي بفضل الجمود السياسي المستمر والعنف المسلح وسوء الإدارة التي أدت إلى الأزمة المالية العالمية في العام 2008، ووباء الأفيون، وأكثر من ذلك، أصبحت أمريكا ممثلة بشكل متزايد غير جذابة للكثيرين. إن استجابة الحكومة الفيدرالية البطيئة وغير المترابطة وغير الفعالة في كثير من الأحيان للوباء ستعزز الرأي السائد بالفعل بأن الولايات المتحدة فقدت تميزها.

جمعية أثرية

إن الوباء الذي يبدأ في بلد واحد، وينتشر بسرعة كبيرة في جميع أنحاء العالم هو تعريف التحدي العالمي. كما أنه دليل آخر على أن العولمة حقيقة وليست خيارًا. لقد خرب الوباء البلدان المفتوحة والمغلقة، الغنية والفقيرة، الشرقية والغربية. ما هو مفقود، هو أي علامة على استجابة عالمية ذات مغزى(يبدو أن قانون نيوتن الذي يلاحظ أن لكل فعل رد فعل معاكس ومتساوٍ قد تم تعليقه). إن غياب الصلة الوثيقة تقريباً بمنظمة الصحة العالمية التي يجب أن تكون مركزية لمواجهة التهديد القائم، تشير إلى الحالة العالمية الضعيفة الحكم. ولكن في حين أن هذا الوباء جعل هذا الواقع واضحًا، بشكل

خاص، فإن الاتجاهات الأساسية سبقته منذ مدة طويلة: ظهور تحديات عالمية لا يمكن لأي دولة، مهما كانت قوتها، أن تواجهها بمفردها – وفشل المنظمات العالمية في مواكبة هذه التحديات.

الواقع، أن الفجوة بين المشاكل العالمية والقدرة على مواجهتها تقطع شوطا طويلا نحو تفسير حجم الوباء. والحقيقة المحزنة التي لا مفر منها هي أنه على الرغم من استخدام عبارة "المجتمع الدولي" كما لو كانت موجودة بالفعل، إلا أنها في الغالب طموحة، تنطبق على جوانب قليلة من الجغرافيا السياسية اليوم. لن يتغير هذا في أي وقت قريب. وكانت الاستجابات الرئيسية للوباء وطنية أو حتى دون وطنية، وليست دولية. وبمجرد أن تمر الأزمة، سيتحول التركيز إلى الانتعاش الوطني. في هذا السياق، من الصعب رؤية الكثير من الحماس، على سبيل المثال، للتعامل مع تغير المناخ، خاصة إذا ظل يُنظر إليه– بشكل غير صحيح – كمشكلة بعيدة يمكن وضعها على الرف لصالح معالجة أكثر إلحاحًا.

أحد أسباب هذا التشاؤم هو أن التعاون بين أقوى دولتين في العالم ضروري لمواجهة معظم التحديات العالمية، ومع ذلك، فقد تدهورت العلاقات الأمريكية الصينية لسنوات. هذا الوباء يفاقم الاحتكاك بين البلدين. في واشنطن، يحمل الكثيرون الحكومة الصينية المسؤولية، وذلك بفضل أسابيع من التستر والخمول، بما في ذلك الفشل في إغلاق مدينة ووهان على الفور، حيث بدأ تفشي المرض، والسماح لآلاف المصابين بالمغادرة ونشر الفيروس أبعد. إن محاولة الصين الآن لتصوير نفسها على أنها تقدم نموذجًا ناجحًا للتعامل مع الوباء واستخدام هذه اللحظة كفرصة لتوسيع نفوذها حول العالم سيقود فقط إلى زيادة العداء الأمريكي. وفي الوقت نفسه، لن يغير شيئًا بشأن الأزمة الحالية. فوجهة نظر الصين بأن الوجود الأمريكي في آسيا هو حال شاذة تاريخية أو يقلل من استيائها من سياسة الولايات المتحدة بشأن مجموعة من القضايا، بما في ذلك التجارة وحقوق الإنسان وتايوان.

اكتسبت فكرة "الفصل" بين الاقتصاديين جاذبية كبيرة قبل الوباء، مدفوعة بمخاوف في الولايات المتحدة من أنها أصبحت تعتمد بشكل كبير على خصم محتمل للحصول على العديد من السلع الأساسية، وهي عرضة بشكل مفرط للتجسس الصيني وسرقة الملكية الفكرية. الدافع للانفصال سينمو نتيجة للوباء، ويعود ذلك جزئياً فقط إلى المخاوف بشأن الصين. سيكون هناك تجدد التركيز على إمكانية انقطاع سلاسل التوريد مع الرغبة في تحفيز التصنيع المحلي. ستتعافى التجارة العالمية جزئيًا، لكن الحكومات ستدير جزءًا أكبر منها.

إن المقاومة، في معظم أنحاء العالم المتقدم لقبول أعداد كبيرة من المهاجرين واللاجئين، وهو اتجاه كان مرئيًا على الأقل خلال نصف العقد الماضي، سوف يزيد من حدة هذا الوباء. سيكون هذا جزئياً بسبب القلق من خطر استيراد الأمراض المعدية، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن البطالة المرتفعة ستجعل المجتمعات حذرة من قبول الغرباء. ستنمو هذه المعارضة حتى مع استمرار زيادة عدد النازحين واللاجئين – بالفعل على المستويات التاريخية – بشكل ملحوظ حيث لم تعد الاقتصادات قادرة على دعم سكانها.

ستكون النتيجة معاناة إنسانية واسعة النطاق وأعباء أكبر على الدول التي لا تستطيع تحملها. كان ضعف الدولة مشكلة عالمية كبيرة لعقود، لكن الخسائر الاقتصادية للوباء ستخلق دولًا أكثر ضعفاً أو فاشلة. ومن شبه المؤكد، أن هذا سوف يتفاقم بسبب مشكلة الديون المتزايدة، فقد كان الدين العام والخاص في معظم أنحاء العالم بالفعل في مستويات غير مسبوقة، والحاجة إلى الإنفاق الحكومي لتغطية تكاليف الرعاية الصحية ودعم العاطلين عن العمل سيؤدي إلى ارتفاع الدين بشكل كبير. سيواجه العالم النامي على وجه الخصوص متطلبات هائلة لا يمكنه تلبيتها، ويبقى أن نرى ما إذا كانت البلدان المتقدمة ستكون مستعدة لتقديم المساعدة بالنظر إلى الطلبات في الداخل. هناك احتمال حقيقي لحدوث توابع – في الهند والبرازيل والمكسيك وفي جميع أنحاء إفريقيا – يمكن أن تتداخل مع الانتعاش العالمي.

سلّط انتشار COVID-19 إلى أوروبا وعبرها الضوء أيضًا على فقدان زخم المشروع الأوروبي. وقد استجابت البلدان في معظمها بشكل فردي للوباء وآثاره الاقتصادية. لكن عملية الاندماج الأوروبي خسرت من زخمها قبل هذه الأزمة بوقت طويل – كما أظهر خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي بشكل واضح. السؤال الرئيسي، في عالم ما بعد الوباء، هو إلى أي مدى سيستمر البندول في التأرجح من بروكسل إلى العواصم الوطنية، حيث تتساءل البلدان عما إذا كان التحكم في حدودها يمكن أن يبطئ انتشار الفيروس؟

من المرجح أن يعزز الوباء الركود الديمقراطي الذي كان واضحا منذ 15 عامًا، ستكون هناك دعوات لدور حكومي أكبر في المجتمع، سواء أكان ذلك لتقييد حركة السكان أم لتقديم المساعدة الاقتصادية. وسيتعامل الكثيرون مع الحريات المدنية على أنها من ضحايا هذه الحرب، وهي رفاهية لا يمكن تحملها في الأزمات. وفي الوقت نفسه، ستظل التهديدات التي تشكلها الدول غير الليبرالية، مثل روسيا وكوريا الشمالية وإيران، موجودة ولن تختفي بمجرد عدم انتشار الوباء. في الواقع، ربما ازدادت المخاطر بينما تم تركيز الانتباه في مكان آخر.

عالم في فوضى أكبر

منذ أكثر من ثلاث سنوات، نشرت كتابًا بعنوان "عالم في فوضى"، وصفت المشهد العالمي لزيادة التنافس بين القوى العظمى والانتشار النووي والدول الضعيفة وزيادة تدفق اللاجئين وتنامي القومية، إلى جانب تراجع دور الولايات المتحدة في العالم، ما سيتغير نتيجة الوباء ليس حقيقة الفوضى ولكن المدى. من الناحية المثالية، ستجلب الأزمة التزامًا متجددًا ببناء نظام دولي أكثر قوة، مثلما أدت كارثة الحرب العالمية الثانية إلى ترتيبات تعزز السلام والازدهار والديمقراطية لما يقرب من ثلاثة أرباع القرن. وسيشمل مثل هذا النظام تعاونًا أكبر لرصد تفشي الأمراض المعدية والتعامل مع عواقبها، بالإضافة إلى مزيد من الاستعداد للتصدي لتغير المناخ، ووضع قواعد للفضاء السيبراني، ومساعدة المهاجرين القسريين، ومعالجة الانتشار والإرهاب. ولكن ليس هناك سبب يدعو للاعتقاد بأن الماضي سيكرر نفسه بعد هذه الكارثة العالمية الأخيرة. إن العالم اليوم لا يفضي ببساطة إلى تشكيله، يتم توزيع السلطة في أيدي أكثر، سواء الدولة أو غير الدولة، أكثر

من أي وقت مضى.. الإجماع غائب في الغالب. لقد تجاوزت التقنيات والتحديات الجديدة القدرة الجماعية على التعامل معها، لم يوجد بلد واحد يتمتع بمكانة الولايات المتحدة في العام 1945.

الأكثر من ذلك، أن الولايات المتحدة ليست مهيأة حاليًا لتولي دور دولي رائد، نتيجة الإرهاق الناجم عن حربين طويلتين في أفغانستان والعراق وتزايد الاحتياجات في الداخل، حتى لو فازت سياسة "تقليدية" خارجية بما يمثله نائب الرئيس السابق "جوزيف بايدن" في الانتخابات الرئاسية في نوفمبر/ تشرين الثاني، فإن مقاومة الكونغرس والجمهور ستمنع العودة الشاملة لدور أمريكي موسع في العالم. ولا يوجد بلد آخر، ليس الصين أو أي شخص آخر، لديه الرغبة والقدرة على ملء الفراغ الذي خلقته الولايات المتحدة.

بعد الحرب العالمية الثانية، حفزت الحاجة إلى مواجهة التهديد الشيوعي الذي يلوح في الأفق الجمهور الأمريكي لدعم بلاده في تولي دور رائد في جميع أنحاء العالم. قال وزير الخارجية الأسبق "دين أتشيسون" عبارة مشهورة: "إن على الحكومة أن تجعل الحجج "أوضح من الحقيقة" لجعل الشعب الأمريكي والكونغرس يشتركان في جهود احتواء الاتحاد السوفياتي".

يقترح بعض المحللين أن التذرع بتهديد الصين يمكن أن يحفز بالمثل الدعم الشعبي اليوم، لكن السياسة الخارجية القائمة على معارضة الصين لا تكفي لمواجهة التحديات العالمية التي يطرحها عالم اليوم. وفي الوقت نفسه، فإن مناشدة الشعب الأمريكي لوضع معالجة هذه المشاكل العالمية في صميم السياسة الخارجية للولايات المتحدة سيظل أمرًا صعبًا. وبناءً على ذلك، فإن السابقة الأكثر صلة التي يمكن محاكاتها قد لا تكون المرحلة التالية للحرب العالمية الثانية، ولكن المرحلة التالية للحرب العالمية الأولى – حقبة من انخفاض التدخل الأمريكي وتصاعد الاضطرابات الدولية– والبقية، كما يقولون، هو التاريخ.

الغرب يعترف.. كيف أسهمت تعاليم الإسلام في الحد من انتشار كورونا؟[22]

2020/3/21

في أوقات المعاناة الإنسانية والمحن الكبرى يكون الدين غالبًا مصدرًا للسكينة والطمأنينة، لكن رغم تزايد حالات الإصابة بفيروس كورونا في أوروبا فإن الناس لم يهرعوا إلى الكنائس، كما قررت دول عربية إلغاء إقامة الصلوات بالمساجد. ويتوسع فيروس كورونا في حصد أرواح الآلاف حول العالم، وصولًا إلى المسؤولين السياسيين والدينيين، وهو ما جعل كثيرين يعتقدون أن تعاليم الإسلام ستسهم في الحد من انتشار المرض، في حال تم التزامها. وحمل الدين الإسلامي كثيرًا من التعاليم التي بدأت حكومات بتطبيقها؛ للسيطرة على المرض، ومن بينها الحجر الصحي، والنظافة التي حث عليها الإسلام، وغيرهما من التعاليم.

تأكيد غربي

وأكدت مجلة أمريكية في تقرير لها، ما نشره "الخليج أونلاين" مسبقاً، حول مساهمة تعاليم الدين الإسلامي في الحد من انتشار "كورونا."

وفي تقرير للباحث الأمريكي **كريج كونسيدين** نُشر في 21 مارس 2020، بمجلة "نيوزويك"، نقل فيه عن الدكتور أنتوني فوسي عالم المناعة، والدكتور سانجاي جوبتا المُراسل الطبي، قولهما: إن "التزام النظافة الصحية، والحجر الصحي، أو ممارسة العزل الاجتماعي عن الآخرين؛ أملًا في الحيلولة دون انتشار الأمراض المعدية، تُعد أكثر التدابير فاعلية لاحتواء تفشي وباء فيروس كورونا المستجد." وطرح **كونسيدين**، الذي صدر له مؤلفان تناول فيهما الإسلام، سؤالًا حاول الإجابة عنه، قائلًا: "**هل تعلمون من الذي أوصى بالتزام النظافة والحجر الصحي الجديد في أثناء تفشي الأوبئة؟**"، **فأجاب قائلًا: "نبي الإسلام مُحمد، قبل 1400 عام."**

ورأى الكاتب أنَّه "على الرغم من أنَّ نبي الإسلام ليس بأي حال من الأحوال، خبيرًا تقليديًّا بالمسائل المتعلقة بالأمراض الفتاكة، فإنه كانت لديه نصيحة جيدة لمنع ومكافحة تطور الأوبئة مثل فيروس كورونا المستجد."

ويقول إن النبي محمد قد أوصى بعزل المصابين بالأمراض المُعدية عن الأصحاء، وحثَّ البشر على التزام عادات يومية للنظافة قادرة على حمايتهم من العدوى، مستعرضاً عدداً من الأحاديث النبوية المتعلقة بالنظافة.

[22] الخليج أون لاين

وأضاف: "محمد قال: إذا ما سمعتم بانتشار الطاعون بأرض ما فلا تدخلوها، أما إذا انتشر الطاعون في مكان خلال وجودك فيه فلا تغادر هذا المكان. وقال أيضًا: المصابون بأمراض مُعدية يجب إبقاؤهم بعيدًا عن الآخرين الأصحّاء".

ويتابع الكاتب القول متسائلًا: "في حال مرِض شخص ما، فما النصيحة التي سيُسديها النبي محمد إلى البشر الذين يتكبدون الألم؟"، فأجاب الكاتب: إنه "بالفعل سيُشجعهم على السعي للحصول على العلاج الطبي والأدوية."

واستشهد بالحديث النبوي الشريف عن أسامة بن شريك، قال: قالت الأعراب: يا رسول الله، ألا نتداوى؟ قال: "نعم، يا عباد الله تداووا؛ فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاء، إلا داءً واحدًا"، قالوا: يا رسول الله وما هو؟ قال، "الهِرَم."

وقال الكاتب إنَّ نبي الإسلام كان حكيمًا في الموازنة بين الإيمان والعقل. فخلال الأسابيع الأخيرة رأى البعض أن الصلاة وحدها قادرة على حمايتنا من فيروس كورونا، وليس التزام القواعد الأساسية للعزل الاجتماعي والحجر.

وفي نهاية مقاله حثَّ كونسيدين على تأمُّل العبرة من القصة التي رواها الترمذي بأنه ذات يوم جاء أعرابي يستشير النبي في أمر ناقته، "قال الرجل: يا رسول الله، أعقلها وأتوكل أم أطلقها وأتوكل، قال: اعقلها وتوكل."

وقال الكاتب إنه على الرغم من أنَّ نبي الإسلام أوصى بأن الدين دستور جامع لحياة البشرية، فإنه حث أيضًا على اتباع الأسباب الاحترازية اللازمة لضمان استقرار وسلامة ورفاهية الجميع. بمعنى أنَّه حث البشرية على عدم التخلي عن "الفطرة السليمة."

الحجر الصحي

ويُعرف الحجر الصحي الذي تقوم به عدة دول في الوقت الراهن، بأنه إجراء يخضع له الأشخاص الذين تعرضوا لمرض مُعدٍ، سواء أصيبوا بالمرض أو لم يصابوا به، وفيه يُطلب من الأشخاص المعنيِّين البقاء في المنزل أو أي مكان آخر؛ لمنع مزيد من انتشار المرض للآخرين، ولرصد آثار المرض عليهم وعلى صحتهم بعناية.

والحجْر إجراء دعا إليه الرسول الكريم محمد(ص) قبل أكثر من 14 قرنًا؛ بل **يرى البعض أن الإسلام هو أول من أسس لمفهوم الحجر الصحي**. وقد بيَّن النبي(ص) في عدد من الأحاديث مبادئ الحجر الصحي بأوضح بيان، فمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون، ومنع كذلك أهل تلك البلدة من الخروج منها؛ بل جعل الخروج منها كالفرار من الزحف الذي هو من كبائر الذنوب، وجعل للصابر في الطاعون أجر الشهيد، وفقًا لتقرير منشور في موقع "إسلام ويب."

الحجر

ووفقاً للتقرير، فإنَّ منع الناس من الدخول إلى أرض الوباء قد يكون أمرًا واضحًا ومفهومًا، ولكنَّ منع من كان في البلدة المصابة بالوباء من الخروج منها إن كان صحيحًا معافى، كان أمراً غير واضح التبرير في ذلك الوقت، حيث كان يُفترض بالشخص السليم الذي يعيش في بلدة الوباء أن يفر منها إلى بلدة أخرى سليمة، حتى لا يصاب بالعدوى، ولم تُعرف العلة في ذلك إلا في العصور المتأخرة التي تقدم فيها العلم والطب.

ونقل موقع "إسلام ويب" عن الدكتور محمد علي البار، قوله إن الطب الحديث أثبت أن الشخص السليم في منطقة الوباء قد يكون حاملاً للميكروب، حتى لو لم يكن مريضاً به أو تظهر عليه أعراض المرض.

وقد بدأت الصين تطبيق الحجر الصحي في ووهان، بؤرة تفشي المرض، إضافة إلى مدن قريبة منها، في حين بدأت إيطاليا بتطبيقه في عدة مدن بعد توسع المرض. وفي إسبانيا أعلنت السلطات في 14 مارس 2020، تطبيق الحجر الصحي على البلاد بالكامل.

يؤكد المؤرخ الإسلامي والباحث في تاريخ الحضارة الإسلامية **محمد إلهامي**، أن إغلاق المساجد لم يرِد في الإسلام، وما ورد هو ترك صلاة الجمعة والجماعات في مثل هذه الحالة، أي انتشار الأوبئة.

ومن مرونة الإسلام وما يحقق مقاصد الشريعة في حفظ النفس والدين، كما يقول **إلهامي** لـ"الخليج أونلاين" إن: "الإسلام رخَّص في ألا يأتي المسلم صلاة الجماعة في فترة انتشار الأوبئة، ولكن دون إغلاق المساجد."

النظافة والإسلام

ويأمر الإسلام في القيم السلوكية بقيمتي النظام والنظافة، وهما سلوك حضاري منذ أن انتشر الإسلام، حيث قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ"، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نظِّفوا أفنيتكم ولا تشبَّهوا باليهود."

ويرى الكاتب والصحفي العراقي إياد الدليمي، أن شعوب العالم "بدأت تراجع ثقافة النظافة لديها"، مضيفًا: "هذا الفيروس القاتل والمتفشي الذي يهدد العالم سيغير كثيرًا من عادات الشعوب وثقافاتها، وأولاها النظافة."

وفي حديثه لـ"الخليج أونلاين"، أشار الدليمي إلى أن العالم اليوم "يعتمد في مجابهة الفيروس على النظافة، وكثير من آليات النظافة نعرفها نحن كمسلمين"، موضحًا: "نحن نعتمد الماء في الطهارة للصلاة ونعتمد الاغتسال، ولدينا أحاديث نبوية توصي بغسل اليدين قبل الأكل وبعده وبعد الاستيقاظ من النوم، هذا فضلًا عن آليات العزل الصحي التي جاءت في الأحاديث النبوية الشريفة وهي التي يعتمدها العالم اليوم."

الوضوء

ويقصد بذلك الحديثَ الوارد عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ النَّبِيَّ(ص) قَالَ: "إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلاَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الإِنَاءِ حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلاَثًا، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ." وتابع الدليمي: "حتى السلام في الدين الإسلامي فيه وقاية من انتشار الفيروسات."

ويرى أن العالم بعد القضاء على مرض كورونا "سيختلف عما قبله، لذا أعتقد أننا اليوم أمام فيروس سيعيد ترتيب كثير من التفاصيل، ربما لن تقتصر على عادات النظافة لدى الشعوب."

وعن إمكانية أن تكون تلك العادات التي دعا إليها الإسلام مجرد خطوات سيلتزمها الناس لوقت محدود ثم يتجاهلونها، يقول الدليمي: "ربما يملُّون ويتعبون، ولكن ما دامت في هذه العادات الإسلامية وقاية لهم من الفيروسات فأعتقد أنهم سيواصلون."

الإسلام بعيدًا عن التشدد

وبينما أبدى كثير من المسلمين حيرة إزاء نصائح طبية بالابتعاد عن التجمعات، وهو ما يعني الابتعاد عن المساجد، خرجت فتاوى إسلامية تجيز التوقف عن الصلاة بالمساجد في البلدان التي تفشت فيه الأمراض.

ودعا الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين، في 14 مارس 2020، إلى إيقاف إقامة صلاة الجمعة والجماعة في أي بلد بدأ فيه تفشي وباء "كورونا المستجد."

وقال الاتحاد العالمي في فتوى له، نشرها على موقعه الإلكتروني، إن إيقاف صلاة الجمعة والجماعة في البلدان التي بدأ فيها تفشي "كورونا"، يستمر إلى حين السيطرة عليه وتجاوز مرحلة الانتشار والخطر.

في حين قال الشيخ ثقيل بن ساير الشمري، عضو المجلس الأعلى للقضاء بقطر، إن الشريعة الإسلامية أكدت الوقاية من الأمراض، مستشهدًا بالآية القرآنية: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، واستشهد أيضًا بالحديث النبوي الذي يقول: "فِرَّ من المجذوم فرارك من الأسد."

ومن أبرز الطقوس الدينية عند المسلمين العمرة، والطواف حول الكعبة، وقد شهد الحرمان المكي والمدني إغلاقًا أمام المعتمرين، وتم اتخاذ إجراءات صحية؛ منها إغلاق الحرمين الشريفين (المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي بالمدينة) في غير أوقات الصلاة، بعد انتهاء صلاة العشاء بساعة، وإعادة فتحهما قبل صلاة الفجر بساعة.

وقررت السلطات الكويتية والأردنية إيقاف صلاة الجماعة في المساجد، ومن بينها صلاة الجمعة، والاكتفاء بالأذان فقط، في إطار جهود الوقاية من فيروس كورونا.

تعاليم الإسلام في مواجهة كورونا

وفي مواقع التواصل الاجتماعي تناقل نشطاء مقالاً لصحيفة فرنسية، يقول إن المنتقبات، في إشارة إلى المسلمات، "لا خوف عليهن، لأنهن الأقل عرضة لفيروس كورونا."

وكتبت الدكتور **فاطمة الوحش**، على صفحتها في "تويتر"، عن الوضوء خلال الصلوات، قائلةً: "مدة بقاء فيروس كورونا في منطقة الأنف من 3 إلى 4 ساعات حتى يستقر في مجرى التنفس؛ لذلك وجد العلماء أن الوضوء 5 مرات، خاصةً ركن الاستنشاق ثلاث مرات وهو تنظيف الأنف، أحد أسباب الوقاية من الفيروس، حيث إن المدة بين الصلاة والأخرى تمتد من 3 إلى 4 ساعات."

ويرى الباحث في علوم القرآن والوسيط الثقافي بالمركز الإسلامي في بياتشنزا بإيطاليا، **الدكتور ياسين اليافعي**، أن الأطباء والمختصين يقولون إن "أفضل طريق لمنع انتشاره وتوسُّع ضحاياه، هي بأشياء نجد لها في ديننا الإسلامي سندًا وأدلة؛ بل كثير منها ثقافة دينية وسلوك يومي، خاصة في جوانب النظافة التي تحد من المرض وتمنع انتشاره."

وأشار اليافعي في حديثه لـ"الخليج أونلاين"، إلى أن الأطباء أكدوا أهمية غسل اليدين، مضيفًا: "هذا لا يخفى تكراره دينًا في كل وضوء، وقبل الأكل وبعده، ووضوء ما قبل النوم، وغسل اليد عند الاستيقاظ، والمضمضة والاستنشاق، ففي هذه النظافة المتكررة لليد قطع لسلسلة الانتشار السريع للمرض وانتقاله بين الناس."

وتابع: "المسلم وهو يجد العالَم رغم قوته وإمكاناته العلمية يعود لبعض الواجبات الدينية التي يعرفها منذ أن عرف دينه، لَيحمد الله على هذا الدين الذي غرس فيه عقيدة الإيمان والثبات، وغرس فيه عباداتٍ كلها النقاء والنظافة والمصلحة، وخفف كثيراً من الأحكام الشرعية؛ رعاية لحفظ النفس والعقل وعدم إلقائهما في التلف والتهلكة."

ما بعد الكورونا أو النموذج العالمي الرابع[23]

2020/3/26

في مقال قصير عنوانه «ما الذي سيَنتُج عن الكورونا؟»[24]، بحدس مستقبلي لكن برؤية نقدية تراجعية، قدَّم المفكر "جاك أتالي" (ولد بالجزائر سنة 1943) انطباعه حول حالة العالم في شقَّين رئيسين؛ هما الصحَّة/المرض والاقتصاد. يُخيَّل إليَّ أن فكرة أتالي نتشوية في جوهرها، لأن منذ نهاية القرن التاسع عشر، عصر الأزمات السياسية والثورات والأوبئة أيضًا، قطع نتشه مع النموذج المهيمن منذ 2500 سنة وهو الصدق/الكذب في الإطار الحصري للرؤية المنطقية للعالم منذ أرسطو، ليعوّضه بنموذج جديد هو الصحة/المرض، وأن معيار الحقيقة يصبُّ في عنصر بديهي، لكنه مبهم وملغز هو الجسد العليل. بيَّن أتالي كيف أن الأوبئة، خلال الألف سنة الأخيرة، هي التي صنعت الخريطة السياسية والأمنية لأوروبا الناشئة وقتها؛ أوروبا التي كانت ترزح تحت «النموذج الأول» الذي كان يتحدَّد في الباراديغم الديني/اللاهوتي، كانت فيه حصة الأسد للكنيسة الكاثوليكية في سياسة قمعية لا هوادة فيها تُجاه الشقيقة العاقة «الكاثارية» إلى غاية إفنائها نهائياً، ثم تُجاه الضرَّة المشاغبة «البروتستانتية» لاحقاً.

جاء وباء الطاعون، في القرن الرابع عشر، ليُزعزع الثقة تُجاه السلطة البابوية المطلقة، فكان أن حلَّ الشُّرطي محل القس؛ أي الولوج في الدولة الحديثة أو ما سمَّيناه «النموذج الثاني»، وهو الباراديغم السياسي/الأخلاقي الذي هيَّأته فلسفات الحق الطبيعي والحقوق المدنية منذ فولتير وروسو ولوك. لم يكن الانتقال من النموذج الأول إلى النموذج الثاني على صعيد «الفكرة» أو الأيديولوجيا فحسب، بجعل الأنوار مضادَّة لروح العصر الوسيط الكهنوتي، بل كانت على صعيد «الحياة» بأن عوَّض شخص الطبيب شخص الشُّرطي في سياسة الحياة والحفاظ عليها، حين شهد القرن التاسع عشر أوج التَّمظهر الكوني للحياة (داروين وأصل الأنواع، نتشه ومعيار الحقيقة في الصحة والمرض، دلتاي ورؤية العالم والحياة).

يُلخِّص أتالي الانتقالات من السيادة القائمة على الاعتقاد في «النموذج الأول» إلى السيادة القائمة على احترام القوة، ثم احترام سيادة دولة الحق والقانون في «النموذج الثاني». هو يتحدَّث عن انزياح على مستوى «صورة الفاعل» (القس، ثم الشُّرطي، ثم الطبيب)، وحبَّذتُ إجراءً آخر على مستوى «النموذج الفاعل» من وجهة نظر كُلاَّنية (holisme) لا تتنكَّر للأنطولوجيات المحليَّة والجزئية، لأن صورة الفاعلين الآخرين ليست أقل أهمِّية في سياسة الحقيقة أظهرها ميشيل فوكو منذ «ميلاد العيادة» (1963) وإلى غاية «الحراسة والعقاب» (1975)، مثل صورة «رجل القانون». هو أن نظام الخطاب

[23] موقع مؤمنون بلا حدود

[24] -Les Echos, 20 mars 2020.

اختلف باختلاف الأشخاص التي عاتقها سياسة الحقيقة في الميادين الميكروفيزيائية للسلطة، سواء أتعلَّق الأمر بالعيادة أم بالسجن أم بالمؤسسة التَّربوية.

عندما درس ميشيل دو سارتو «الانقلاب النموذجي» في حدود القرنين 16-17م؛ أي الانتقال من النموذج الأول إلى النموذج الثاني، وكان «عصر الباروك (Baroque) «هو عُقدة أو دسيسة هذا الانتقال، نظراً للرؤية الأخروية والتشاؤمية للعالم وقتها، من جرَّاء الأوبئة وانهيار الوحدة العقائدية للكنيسة في طوائف متناحرة، فإنه لمس نوعاً من الاحتيال أو الثورة المضادَّة على الإصلاح، بعودة النموذج اللاهوتي متلبِّساً في الحكم الملكي المطلق (تواطؤ الأمير والقس). طبعاً، لم يدم شهر العسل طويلاً بين الوحدة العقدية للكنيسة الكاثوليكية المتآكلة والملكية المطلقة في أوروبا، لأن المقاومة الثقافية والفلسفية في صناعة إنسان العصر كانت على قدمٍ وساق توَّجتها الثورتان الأمريكية (1763م) والفرنسية (1789م) بمستويات مختلفة من التفاؤل السياسي والإرهاب الفكري.

كيف حدث الانتقال من «النموذج الثاني» إلى «النموذج الثالث» الذي يُمثِّله الباراديغم الاقتصادي/المالي؟ لم يشرح أتالي المسألة سوى من باب عُنصرين، هما «السوق» و«الديمقراطية» في تعزيز الحقوق الفردية. أميل إلى القول إن عُنصر «الحياة» كان بمنزلة «الثقاف» الذي يعتمل ضمنياً في الحضارة، وأن «الفكرة» (أو الأيديولوجيا) كانت في مقام «الثقافة». الأشخاص المذكورة من طرف أتالي (القس، الشُرطي، الطبيب) ما هي سوى صور المثقف في مهام محدَّدة، لأن كان على عاتق هذا المثقف أن يُبرهن للمجتمع كيف يحفظ الحياة من الجوائح. فشل القس (دوره هو الحفاظ على اعتقاد جاف وشعائر تؤدى بتفانٍ)، وانحسر دور الشرطي (دوره هو الحفاظ على الأمن القومي في الأوقات العصيبة بما يدرأ الحرب الأهلية)، وتنامى دور الطبيب (دوره هو درأ المرض وجلب الصحَّة بما يردُّ للحياة استحقاقها).

غير أن هؤلاء الأشخاص الذين يُمثِّلون الثقافة لم يعملوا من دون ثقافٍ يديرهم ويُوجِّههم من وراء حجابٍ؛ تجلَّى تارةً في النموذج الأول في صورة «الإيمان»، وتارةً أخرى في النموذج الثاني في صورة «القوَّة»، ويتجلَّى في النموذج الثالث في صورة «السِّلعة»، حيص تحتوي السوق رمز البضاعة المتنقِّلة من دون حدود جغرافية وجمركية بما يتطلَّبه منطق التجارة العالمية، بل جرى أيضًا «تسليع» الأشكال الرمزية كالفن (اللوحات الزيتية في المزاد العلني) والدين (المواعظ المدفوعة الأجر من لدن دعاة فاعلين مثل بعض الطوائف البروتستانتية) والعلم (الاختراعات التقنية، المدنية منها والعسكرية، مثل المواصلات اللاسلكية كالهواتف الذكيَّة والدرونات أو الطائرات المسيَّرة). لم يكن النموذج الثاني سوى معكوس النموذج الأول، لأن صورة الراعي أو القائد في الأيديولوجيات الشمولية ذات الحزب الواحد (النازية، الستالينية، الفاشية) هي مقلوب صورة القس، وكانت تستعمل الشُرطي في تعزيز عُضو الدولة المهيمنة (الحزب الواحد) بما كان يُسمَّى وقتها بالبوليس السرِّي.

جاء النموذج الثالث ليُفجِّر النموذج الثاني بالتوكيد أن الحرية ضرورية لنقل البضائع وتنقُّل الأشخاص، ثمَّ حركة الأفكار والإبداع وحرية التعبير والاعتقاد (النظام الليبرالي)، ساعدته في ذلك التكنولوجيات الحديثة، وعلى رأسها الشبكة (الأنترنت) والعولمة. ربما يكون رجال البورصة والأسهم قد حلُّوا مكان القساوسة بالأمس، فهم المعكوس المادي لما هو رمزي، ما دام الشكل الاقتصادي والمالي يتلبَّس أدوار الشكل الديني (وردت كلمة «تجارة»[25] في القرآن الكريم بالمعنيين المادي والرمزي وبشكلٍ من المطابقة الاستعارية)، ولا يمكن سوى تصوُّر ساحة البورصات والأسواق المالية العالمية في الأخذ والرَّد واغتنام الفرص للظفر بالعوائد المالية في حينها كساحات الحج والطواف في الظفر بالأجر. نجد أنفسنا في انتقالات هي في الواقع دوائر متداخلة وأدوار متلبَّسة، وكل نموذج من هذه النماذج لم يُقدِّم القيمة الملائمة للوجود الإنساني في العالم، وجود متأزِّم بما يصادفه من جوائح ومصائب، إن لم تكن أعاصير مدمِّرة من جرَّاء الاحتباس الحراري والتلوُّث البيئي، فمن جرَّاء أوبئة كالتي نشهدها اليوم مع الكورونا (كوفيد 19).

يرى أتالي في التضامن العالمي القيمة الوحيدة في إنقاذ ما يمكن إنقاذه من تآكل النماذج التنظيمية، السياسية منها والاقتصادية، بوجود عُنصرين لم يُفلحا في دفع المضرَّة التي تلمُّ بالإنسانية، وهما القوة والاستهلاك. عندما يستحضر أتالي التضامن كقيمة إنسانية من شأنها مجاوزة الانحسار الراهن، فإنه يشير إلى مسألة اختفت في الدراسات الفلسفية منذ دلتاي وماكس شيلر، وهي «التقمُّص الوجداني .(empathie, Einfühlung) « جرى التخلِّي عن هذا المفهوم الذي دعَّم التحليل النفسي والفينومينولوجيا بقيمة نظرية وعملية زائدة، أقول التخلي عنه على أنه من بقايا الفلسفة الذاتية. غير أننا نخطئ إذا اختزلنا التقمُّص الوجداني في سلوك نفساني هو التعاطُف الذي قد يسقط في فخ النرجسية. إذا كان هنالك «نموذج رابع» سيكتسح البشرية هو تنامي هذا السلوك الوجداني الذي سيضع حدًّا للتصوُّر الراهن للعالم القائم على الهوس المفرط في الاستهلاك الذي يُمثِّل المأزق الذي وصل إليه النموذج الثالث، ساعدته في ذلك الفردانية الكاسحة، بل والأنانية المستوطنة.

ما هو عمل هذا التقمُّص الوجداني في النموذج الرابع؟ يمكن القول إن وباء كورونا العالمي سيُعجِّل في توطين هذا النموذج الرابع. سيكون ذلك بتراجع حُمَّى البيع والشراء (النموذج الثالث) والالتفات إلى سمَّاه أتالي «ما هو جوهري أو أساس (l'essentiel) «بالوعي الجماعي بالانتماء الطبيعي للأرض، وبأن لهذا الكوكب حدوداً في الموارد الطبيعية (المائية، النباتية، الحيوانية) وبأن الوعي بهذه الحدود وعقلنة الاستهلاك وترشيد النفقات هي السُّبُل الوحيدة في تجاوز المحن الحالية. إذا أخذنا على محمل الجد التقمُّص الوجداني ونفضنا عنه غُبار الذاتوية، نقول إنه ينتمي إلى جوهر «البَشَرة» التي هي جوهر البشرية نفسها، اسماً ورسماً. لِمَ البشرة؟ أسمِّي البشرة نمط العلاقة بين البشر بالانتماء الجماعي إلى الأرض.

[25] "إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُم الجَنَّة" (التوبة، 111)؛ «أولَئِكَ الذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُـهُم وَمَا كَانُوا مُهْتَدِين» (البقرة، 16)؛ «إِنَّ الذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُور» (فاطر، 29)؛ «يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الصفّ، 10)، إلخ.

كان أغسطين بيرك قد اصطلح على الإقامة في الأرض اسم «المسكونية» (écoumène)؛ هو أن جوهر البشرية هو القابلية للسكن في الأرض (habitabilité) مع الوعي بهذه المسكونية على مستوى الوعي بحدود الأرض على مستوى الموارد (الطاقة، الماء، النبات، الحيوان). بهذا الوعي يجري توطين التقمُّص الوجداني بناءً على ما اصطلحتُ عليه اسم «الانتماء إلى البشرة». تُوفِّر البشرة أساسيات هذا التقمُّص على مستوى التعاطف والفهم الذي يعني التفاهم وتأويل الوضعيات الإنسانية تأويلاً «بشرياً» (من البشرة). يضمُّ المجال الأرضي (géosphère) الذي نقطنه طبيعياً الغلاف البشري (dermosphère) الذي يجعل ممكناً التواصل الإنساني على المستوى الفكري والثقافي .(noosphère) إذا كان التوكيد على المستوى الفكري والروحي والكوكبي أو العولمي قد أنسانا نظام انتمائنا إلى البشرة، وإلى الأصل المتواري فيها، وهو «الأدمة»، فإن مجاوزة المحن الحالية مرهون بفقه سؤال البشرة والمسكونية الأرضية.

يُقدِّم التقمُّص الوجداني من وحي البشرة أساسيات المعنى من وحي المعاناة؛ أي ما نختبره في نقطة التَّماس بين البشرة والعالم. تمرُّ العناية بالعالم بحماية البشرة التي هي جوهر البشرية. كل عناية بالبشرة هي السلوك الوجداني تُجاه البشر بدرء ما يُؤلم هذه البشرة. إنها العناية ببشرة الأرض (البيئة) وببشرة الإنسانية (الصحة). نُدرك بأن الوباء يُوفِّر المنبِّه الأساس للالتفات إلى قيمة البشرة التي كانت بمنزلة اللامفكَّر فيه داخل الاستغلال الفاحش والمفرط لبشرة الأرض باستنفاد مواردها، وداخل الصراع المتعب بين الأيديولوجيات في الطبقة المفكِّرة .(noosphère) تُوفِّر لنا البشرة أساسيات التفكير في مستقبل البشرية بوضع الوجدان في صُلب الوجود، هذا الوجدان الذي يتجاوز محض الشعور النفساني بالآخر، والذي قد يميل إلى نوعٍ من الشعور النرجسي والأناني بالتواصل مع الآخر، نحو الاستشعار بالآخر على سبيل التذاوُت.

كورونا والفلاسفة... حرب أهلية أم حرب وهمية؟![26]

2020/3/24

سارع بعض الفلاسفة والباحثين الأوروبيين (والغربيين) إلى استقراء واقع العالم انطلاقاً من التعاطي مع وباء كورونا وطرق محاربته... الكتابة تأتي على وقع الصدمة، كأننا أمام 11 أيلول صحي... إرهاب 11 أيلول، في رأي الكثير من المعلقين، دفع أوروبا وأميركا لإعادة النظر في الكثير من الأفكار والعلاقات مع بعض الجماعات والدول الاسلامية، وفرض الإرهاب قيودًا على السفر والسكن، وركزت الدراسات والأبحاث على منابع الإرهاب وناسه ودوله، وكانت النتيجة أن الإرهاب مع الوقت، تحوّل شماعة للكثير من العمليات السياسية ...

مع كورونا صرنا أمام معادلة جديدة أكثر تعقيداً، هي لا تتعلق بالعقل ومعتقداته بل بالحياة نفسها، ولسنا أمام عدو ومن خلفه مجموعة أو جماعة، بل أمام عدو شبحي انطلق من وطواط في الصين، طاول الجميع من مصر إلى إيطاليا، ومن فرنسا إلى أميركا، ومن النازحين الى الرؤساء... والصراع الأساس اليوم، كيف نجد اللقاح...

بعض زعماء الدول الكبرى، ترامب، ماكرون وانجيلا ميركل، استخدموا عبارة "الحرب" للحديث عن مواجهة وباء كورونا، بل إن إحدى الصحف الصينية تحدثت عن سيناريو "الحرب العالمية الثالثة" في وصف الإجراءات التي اعتمدتها جل دول العالم لمحاربة الفيروس. المشهد فعلاً يوحي بحرب حقيقية: إعلان حال الطوارئ، شوارع فارغة، عزلة سكانية، طب على الطريقة الحربية خصوصاً في إيطاليا. الفيلسوف الفرنسي مارسيل غوشيه يقول: "لسنا في حال حرب أو أنها تبدو حرباً وهمية، إن استخدام ماكرون للمصطلح في ما يتعلق بوباء كورونا لا يتناسب مع الواقع، تذكروا الحرب العظمى 1914–1918: أكثر من 20000 قتيل في اليوم الأول... لحسن الحظ، نحن بعيدون جدًا منها. لكن إذا استمرت هذه الأزمة، مع تقليص نقل البضائع على المستوى الدولي، يمكننا أن نتوقع عودة التقنين. هنا ينتهي التشابه. نحن لسنا في نمط الحرب نفسه."

أما حرب الكورونا لها مقاربة أخرى أدق بالنسبة إلى الفيلسوف الإيطالي "جورجيو اغامبن" الذي تحدث عن "حرب أهلية" ما دام العدو في الداخل، ينفذ من راحة اليد وريق الفم وليس من الخارج. لقد بات الهدف الأقصى للدول والحكومات إنقاذ حياة الإنسان في وضعها البيولوجي الضيق الأدنى (الحياة العارية بحسب عبارة اغامبن)، مع التضحية بكل مكاسب المدنية الحديثة من حقوق سياسية واقتصادية، بما يعني أن الحال الاستثنائية أصبحت الأفق الطبيعي للسياسات العمومية حتى في الديمقراطيات العريقة.

العالم الثالث الجديد

[26] موقع المدن

هناك جموح في توصيف أوروبا لكورونا، ثمة شعور بالترهل لدى الدول الأوروبية إلى درجة أن إيطالياً رفع العلم الصيني بدلاً من علم الاتحاد الأوروبي، أرقى نظام صحي في إيطاليا لم ينفع في مواجهة الفايروس المستجد. فالفيلسوف الفرنسي "ميشال أونفراي"، وهو يصنف خانة "اليسار المعادي لليبرالية"، ندد بـ"انعدام كفاءة القادة الأوروبيين واستهتارهم في مواجهة التفشي الخطير لوباء كورونا؛ معتبراً أن أوروبا أضحت "العالم الثالث الجديد". وهو ينظر إلى الأمور انطلاقاً من طروحاته، فيرى أن أزمة كورونا تندرج ضمن مسألة انهيار الحضارة اليهودية– المسيحية التي تطرق إليها في كتابه "الانحطاط". فأيديولوجية أوروبا "الماستريشية" (نسبةً إلى اتفاقية ماستريش) التي ضُربت بهراوة منذ عقود سقطت كالفاكهة المتعفنة... نتيجة السياسة الليبرالية الأوروبية! وقال الفيلسوف الفرنسي إنه بالطريقة نفسها التي أظهر بها سقوط الاتحاد السوفياتي أن الشرق عاش في الوهم لأكثر من نصف قرن من الزمان في ما يتعلق بالإمبراطورية الماركسية–اللينينية التي تحولت إلى نمر من ورق؛ فإن وباء كورونا يظهر بقسوة أن أوروبا الماستريشية التي قُدمت على مدار ربع قرن على أنها وحش اقتصادي من المحتمل أن يتصدى للإمبراطوريات الكبرى في العالم، ها هي اليوم تسقط في هذا الأمر: عاجزة عن صنع وتوفير الكمامات للأطباء والممرضين. وكلام "اونفراي" المفرقعاتي الانفعالي حظي باهتمام كبير في وسائل التواصل الاجتماعي، خصوصاً أنه ينعي أوروبا ونظامها ..

تشرنوبيل صحي

"مارسيل غوشيه" الذي سأله محاوره "مارتن لوغرو" عن البعد السياسي لكورونا خارج نطاقها الصحي والاقتصادي؟ أجاب: "هذا مرتبط بكيفية إدارته؛ إن الدعاية التي أصبحت تفرض علينا في هذه المسألة تتعلق بكون النموذج السياسي الصيني، الاستبدادي أو ما بعد الشمولي، أكثر فعالية من نموذجنا. وذهبت صحيفة الشعب اليومية (التابعة للحزب الشيوعي الصيني) إلى حد ادعاء "التفوق الواضح للحزب الشيوعي وقيادته". وبكين التي تجرؤ على التأكيد على أن "العالم يمكن أن يشكر الصين"، لا تنتبه إلى أن العيوب المتأصلة في النموذج السياسي الصيني وغموضه، وهي تشيرنوبيل صحي. في هذا النظام، يحتكر الحزب وقائده عملية صنع القرار السياسي، بُدِئ منذ أكثر من شهر، في "التستر على القضية بمحاكمة حتى أولئك الذين دقوا ناقوس الخطر، ثم عندما أظهر رد الفعل هذا آثاره الكارثية، تم التعامل مع المشكلة بطريقة قاسية واستبدادية من خلال فرض قواعد ذات ضراوة على المجتمع الصيني لن نكون قادرين على فرضها نحن، لكن كان الأوان قد فات بالفعل."

لا يتردد "غوشيه" في القول إنه من خلال الديموقراطية كان يمكن السيطرة على الوباء بشكل أكثر فعالية. هذا هو الدليل الذي قدمه الفيلسوف الهندي "أمارتيا سين" بقوة في حال المجاعة. فقد أبرز أن "الديموقراطية كانت دائماً أفضل طريقة لتجنب المجاعات، وذلك بفضل المعلومات التي يجري تداولها". يضيف: "لو كانت الديموقراطية قد سادت في الصين، لما كان هذا الوباء بهذا الحجم". ويتقاطع قول غوشيه مع راي اليساري الماركسي "سيلافوي جيجك" الذي قال على

الرغم من الطريقة القوية التي انتهجتها الدولة الصينية تجاه الأزمة يبدو أنها قد نجحت– على الأقل هي تعاملت مع الوباء بشكل أفضل بكثير مما يحدث الآن في إيطاليا– إلا أن المنطق الاستبدادي القديم للشيوعيين في السلطة أظهر بوضوح حدوده. إحداها أن الخوف من جلب الأخبار السيئة لمن هم في السلطة (وللجمهور) يفوق النتائج الفعلية – وهذا على ما يبدو هو السبب وراء اعتقال الأشخاص الذين شاركوا المعلومات للمرة الأولى عن فيروس جديد. وهناك تقارير تفيد بأن شيئاً مشابهاً يحدث الآن.

في المقابل يسأل ألا يُعدُّ الإغلاق التام لإيطاليا حلمًا استبداديًّا تحقّق؟ لا عجب في أن الصين (على الأقل كما تبدو الآن) أثبتت، وهي التي مارست بالفعل أساليب رقابة اجتماعية رقمية، أنها مجهّزة بشكل أفضل لمواجهة الأوبئة الكارثية. هل هذا يعني أن الصين هي مستقبلنا في بعض الجوانب على الأقل؟ هل نقترب من حال استثنائية عالمية؟ هل اكتسبت تحليلات جورجيو أغامبين حقيقة جديدة؟ يضيف جيجك: "ليس مفاجئاً وصول أغامبين نفسه لهذا الاستنتاج، لقد تفاعل مع فيروس الكورونا بطريقة مختلفة جذريًّا عن غالبية المعلقين.

مجلة "فورين أفيرز" الأميركية تنظر الى كورونا من زاوية عملية، ذكرت في مقال مشترك لاثنين من أبرز الخبراء في مجال الحاسوب، يارون لانيير وغلين ويل، أنه في الوقت الذي لم يكن فيه رد فعل أكبر دولتين في العالم (الولايات المتحدة والصين) بالسرعة المطلوبة إزاء الوباء الكوني، برزت تايوان أنموذجًا يحتذى به. ويرى الكاتبان أن رد الصين على تفشي الفيروس اتسم في بادئ الأمر بالإنكار. ومارست الولايات المتحدة هي الأخرى، نكراناً سياسياً قبل أن تتبنى إجراءات "التقليل من التجمعات". ولعل تعامل الاتحاد الأوروبي الذي اتصف بالبيروقراطية ورهاب التكنولوجيا – بحسب تعبير لانيير وويل– كان هو الأسوأ. وفي اعتقاد الخبيرين في مجال التكنولوجيا فإن من الأفيد التركيز على الدولة التي أبلت بلاء حسناً –وهي تايوان التي استمدت نجاحها من قدرتها على دمج التكنولوجيا مع النشاط الفعال والمشاركة المدنية. استطاعت إقامة نظام ديموقراطي قائم على أحدث التقنيات مما ساعدها في السنوات الأخيرة على تطوير أكثر الثقافات السياسية حيوية في العالم.

كما توقع الكاتب الفرنسي جاك أتالي، أنه، في حال فشل النظم الليبرالية الغربية في درء مخاطر ما أسماه التسونامي الصحي والاقتصادي، فستبرز نظم سلطة جديدة قائمة على الرقابة وبشكل أكثر فعالية باستعمال تكنولوجيات الذكاء الاصطناعي...

النقطة البارزة التي يلتقي حولها عدد من المفكرين والفلاسفة في زمن كورونا، تتمثل في النظرة إلى العولمة والاقتصادي الليبرالي أو النيوليبرالي وآفاته ومستقبله. يقول "أونفراي" إن كورونا غير موجود بشكل مستقل عن الاقتصاد، ففي اقتصاد العولمة، جعلت الطريقة الليبرالية من الربح الأفق الذي لا يمكن تجاوزه في جميع السياسات. وقال "إدغار موران" إن الدرس الرئيسي الذي يمكن استخلاصه في هذه المرحلة من جائحة فيروس كورونا، أن هذه الأزمة تبين أن

"العولمة هي الاعتماد المتبادل من دون تضامن، وقد أنتجت بالتأكيد التوحيد التقني والاقتصادي للكوكب، لكنها لم تعزز التفاهم بين الشعوب. منذ بداية العولمة في التسعينيات، اشتعلت الحروب والأزمات المالية، وقد خلقت مخاطر الكواكب – البيئة والأسلحة النووية والاقتصاد غير المنظم– مصيرًا مشتركًا للبشر، لكن البشر لم يدركوا ذلك". ويردف بأن "فيروس كورونا يخبرنا بقوة أن البشرية كلها يجب أن تبحث عن مسار جديد يتخلى عن العقيدة النيوليبرالية من أجل سياسة مضادة للأزمة اجتماعية وبيئية. إن المسار الجديد سيحمي ويعزز الخدمات العامة مثل المستشفيات التي عانت من تخفيضات مجنونة في أوروبا لسنوات. سوف يصحح المسار الجديد آثار العولمة من خلال إنشاء مناطق متحررة من العولمة من شأنها حماية استقلالات ذاتية أساسية..."

يقول "مارسيل غوشيه" لا يمكن لأحد أن يتنبأ بحجم الحدث، لكن الصدمة الفكرية والأيديولوجية كبيرة. لقد ماتت العولمة الليبرالية القائمة على مبدأ "التجارة اللينة"(*) حل لجميع المشاكل قد عفا عليه الزمن، الحاجة إلى التفكير الاستراتيجي تفرض نفسها على نطاق المجتمعات المشكلة. نحن بحاجة إلى نموذج سياسي جديد. ولم يغفل "جاك أتالي" أهمية هذه التحولات، والتي بيّن التاريخ أن انتشار الأوبئة الفتاكة كان دائماً تمهيداً لاندثار شرعيات قديمة وقيام شرعيات جديدة مقامها على أساس القدرة على حماية البشر من الموت، إذ يقوم الباقون على قيد الحياة بالثأر للموتى من الذين عجزت القوى المهيمنة عن حمايتهم من الموت عبثًا ولم تفلح في أن تمنح معنى لمغادرتهم الحياة.

مجلة "فورين أفيرز" حذّرت من قدرة فيروس كورونا على إعادة تشكيل النظام العالمي، منبهةً من أنّ الصين تناور لتقود العالم في حين تفشل الولايات المتحدة الأميركية في التعاطي مع الوباء. وبيّنت المجلة أنّ الصين تتحرك بسرعة وبراعة لاستغلال الفجوات التي خلّفتها الأخطاء الأميركية، لافتةً إلى أنّها تعمل على ملء الفراغ لتتموضع كقائدة للعالم على مستوى الاستجابة للوباء. أما "جيجك" يطلق عناوين مثل "الكورونا كفرصة للتحرّر والديموقراطية ومناهضة الاستهلاك"، و"كورونا ضربة للرأسمالية قد تعيد اختراع الشيوعية"، ويعدد مجموعة من الأسباب التي تجعله يقول "ألا يشير هذا كله بوضوح إلى الحاجة الملحة لإعادة تنظيم الاقتصاد العالمي بطريقة لا يبقى فيها تحت رحمة آليات السوق؟ يضيف نحن اليوم، كلنا، نقترب فعلياً من "حالة حرب طبية."

الكورونا وأوهام المعجزة الدينية[27]

2020/3/23

تُعتمد الصدماتُ عادة لاختبار صلابة الأشياء وقدرتها على المقاومة والتحمل، أما الأزمات فتختبر صحة الإدعاءات وحدودها وصلاحية النظريات وقدرة المفاهيم على التفسير والفهم. هكذا الحال مع أديان زماننا حين باغتها فيروس الكورونا، وأربكها إرباكًا شديدًا في التصدي لهذا الوباء الذي يكتسح البشرية بسهولة فائقة، فلم يزدها التخبط في تفسيره أو سبل مواجهته سوى انكشاف مكامن ضعفها وتهافت الكثير من ادعاءاتها.

حين نشأت العقلانية بصفتها أفق تفكير ونمط انتظام جديدين، ليس للغرب الأوروبي فحسب، بل للوجود الإنساني بأسره على مراحل ومستويات متفاوتة بين المجتمعات، حينها أخذت العلوم تتأسس وفق معايير تجريبية خالصة منحتها قدرة الكشف الفعلي عن نظام الطبيعة والفهم الواضح لقوانينها، ما أخرج مسار الطبيعة من نبؤات النص الديني وقدرات رموزه الخارقة لتضع نفسها بتصرف الإنسان وبين يديه. وأخذ الانتظام الاجتماعي يخرج من روابطه العضوية ومن مسلمات الدين الغيبية، ويتشكل على أرضية تعاقدية، أي عدّه صناعة بشرية خالصة ارتقت بالفرد ليكون مسؤولاً عن تقرير مصيره والتحكم به، ما أخرج التاريخ الإنساني من أن يكون سلسلة نبؤات مقررة مسبقًا أو أحداث مقدرة لغايات إلهية، إلى أن يكون علمًا يمكن فهم محركاته وتعديل مساره وتوقع مآلاته على قاعدة علمية خالصة.

هذا الأمر تسبب بتقليص دائرة نفوذ الدين في المجال العام، وتضييق مجاله المعرفي بمعنى عدم استناد المعرفة الإنسانية الجديدة على مسلمات دينية، وتجاهل أكثر ادعاءاته المتعلقة بتفسير العالم والكون والتاريخ. أي إقصائه شبه التام عن رفد المجال العام بالحقائق والتفاسير والإجراءات، وإحالته شأناً فردياً يقبع في منطقة الضمير والإنتماءات الطوعية غير الملزمة. تاليًا انتقل الدين من كونه مصدرًا للحقائق إلى مجال للحقيقة، ومن عدّه مصدرًا للتعليمات والتوجيهات إلى عدّه إلهامًا للمعنى والاختبارات الذاتية.

حين انحصر نشاط الدين بالبعد غير التجريبي من الوجود الإنساني، بات المجال مفتوحًا لإطلاق النشاط التأويلي للنص الديني، لا لغرض الكشف عن محددات وقوانين الخلاص والنجاة، بل لغرض إغناء الاختبار الإيماني. وهو اختبار لم يعد يتقوم بإلزامات وانصياعات، بقدر ما يعمد إلى استجلاء بواطن النفس الإنسانية وفيوضاتها الروحية وتدفقاتها الوجودية. ما جعل الإيمان منطقة الذات الإنسانية الخائفة من وحدتها والمرتعبة من فائض العالم وتناقضاته التي تتجاوز قدرة الإنسان على استيعابها والإحاطة بها. وهو ما قرَّب سؤال الإيمان مع "كيركجارد" وبعده ليصبح سؤالاً فلسفيا بامتياز،

[27] موقع المدن

باتت فيها المفارقات (Paradoxes) والمخاطر واليأس وتناهي الإنسان وقابليته الدائمة للعطب (Vulnerability) صلب الحقيقة الإنسانية ومنشأ حريتها في آن.

مع صيرورة العالم مدى خالصًا للنشاط العلمي، خرجت المعجزة من أن تكون حقيقة ناقضة لهذا العالم، ولم يعد هنالك مكان لها يغاير مساراته الذاتية وقوانينه الداخلية. وقد بيّن "اسبينوزا" أن المعجزة كانت وسيلة هروب من جهل وتغطية على العجز في فهم وتفسير ما يجرى في العالم. فقوانين العالم بنظر "اسبينوزا" أزلية بأزلية الله نفسه، وأي نقض لهذه القوانين أو كسرها ليس فقط مستحيلاً بل هو نقض لأصل فكرة الله وحقيقته الذي لا يمكن لأزليته إلا أن تتبدى وتتجلى بعالمنا الأزلي.

لستُ هنا لأؤيد مقولة "اسبينوزا" أو أرفضها، إنما لأقول أن مقولته كانت نتيجة منطقية لمسار جديد أعاد الإنسان إلى العالم المحيط به ووضعه في مواجهة الطبيعة وحيداً ومحاصراً بالمخاطر وعارياً ومجرداً من كل الأسلحة والأوهام والمعتقدات والدغمائيات التي أفاض "فرانسيس بيكون" في استعراض وجوهها المؤذية. أي بات الإنسان منذ تلك اللحظة في هذا العالم من دون معجزات، أو لنقل أنه تخلى عن المعجزة التي كان يلوذ بها دائمًا لتنسيه ضعفه ويأسه ومرضه وجزعه وارتعابه من موته القادم إليه حتماً. ما يعني أن اللجوء إلى المعجزة لم يكن فقط جهلاً مُقنَّعاً أو فكرة مستحيلة عقلاً بحسب "اسبينوزا"، بقدر ما هو انخلاع الإنسان من حقيقته، ورغبة منه في نسيان وجوده الفعلي بأنه مرمي في هذا العالم لوحده. والأهم من ذلك، فإن لجوءه إلى المعجزة هو هروب من حريته التي تدفعه إلى استجلاء حقيقته ومواجهة وجوده. فالحرية لا تبدأ بأن تفعل أو تنجز شيئاً ما، بقدر ما هي القرار الجريء بأن تقف بصلابة وإقدام أمام رعب المحدودية الإنسانية وهشاشتها ويأسها وقلقها. الحرية هي أن يواجه الإنسان حقيقة وجوده من دون مواربة أو تَخَفٍ أو هروب، قبل أن تتسنى له فرصة عمل شيء ما إزاءها.

لهذا، فإنه حين تستنهض الأديان والمذاهب في بلادنا موارد ومصادر المعجزة في التصدي لوباء الكورونا، فإنها تسعى إلى تسكين خوفنا وإزالة فزعنا، وتوليد طمأنينة ذاتية لدى الأتباع الجديين لهذه الأديان والمذاهب بأنهم مباركون ومصطفون ومؤيدون ومحميون. وهي محاولات تضع المقدس من جديد في مواجهة العلم ونقيضاً له، وتصور وجود نظامين في الوجود: نظام ظاهر شكلي يتجلى في قوانين الطبيعة ومظاهرها وتجلياتها اللامتناهية، ونظام قدسي يملك دائماً اليد العليا في تعطيل النظام الطبيعي والقدرة الحرة على تعديله وإلغائه وحتى إمحائه. تاليًا هو نظام يملك قدرة الشفاء والقضاء على أي وباء أو مرض لا عبر المجريات والمقتضيات العلمية أو الطبيعية أو السببية، بل عبر مؤثرات غيبية لا يمكن تعقلها أو تحسسها أو قياسها أو حتى التأثير عليها. ويكون مفتاح هذه الإرادة الغيبية تعويذات أو ترانيم لفظية أو طقسيات شعائرية قادرة على استدعاء هذه الإرادة وتسخيرها للحماية والشفاء، من دون أن نفهم كيف ولماذا يحصل كل هذا.

هذا يجعل إرادة المعجزة (وفق الادعاءات المقامة حولها) انتقائية تقتصر على أتباع معينين من دون باقي الناس. هي لخصوص المؤمنين بمذهب أو دين أو معتقد يستحقون مفعول هذه المعجزة. ما يصور الوباء الحالي بمثابة عقاب وغضب غيبي على غير المؤمنين، ومباركة وتأييد وسيادة للمؤمنين ودليل إضافي على صوابيتهم وهدايتهم واصطفائهم. هي ادعاءات تجعل إرادة المقدس عشوائية ومحكومة للصدفة المحضة لا يمكن توقعها ولا تتجلى بقانون أو مبدأ محدد يمكن فهمه أو التعرف إليه، ولا يمكن التواصل معها أو إدراجها داخل وضع منتظم لوجودنا وحياتنا. هي تختار أزمنتها وأمكنتها وأناسها بأريحيتها وعلى البشر تعطيل وإيقاف كل مسعاهم لفك شيفرات محيطهم وجهدهم لعقلنة واقعهم وأنسنة انتظامهم. ما يجعلها، وفق منطق الإدعاءات حولها، إرادة انتقائية ومزاجية تفعل فعلها في مكان ولا تفعله في مكان آخر، وتاليًا لا يكون بإمكان هذه الإرادة أن تجعل من فعلها قاعدة أخلاقية كلية تتوزع منافعها على جميع البشر بالتساوي.

هو ادعاء يصور المعجزة بمثابة الفعل الذي ينقض أي قانون أو مبدأ كوني أو طبيعي، لندخل من جديد في دوامة الكايوس الحر، أي الفعل الذي لا مبدأ له (Concept) ادعاء يظهر المعجزة إرادة معطلة لأية إرادة إنسانية أو أي مسعى إنساني في فهم وعقلنة واقعه، أي إرادة اللامعنى. وأخيراً ادعاء ينصب المعجزة إرادة ناقضة للفعل الإخلاقي نفسه بحكم عدم عموميتها وانتقائيتها الغريبة. ما يجعل إرادة المعجزة تتطابق مع الإرادة العمياء التي روج لها شوبهاور، التي تقف خلف كل سبب أو معنى أو فهم .لا نحتاج هنا للقول إن العالم كله لا يعير أي بال أو حتى اهتمام لادعاءات المعجزة التي كان تضخمها في المشرق العربي والإسلامي لافتاً. العالم ينتظر معجزة العلم والمختبر، أي يراهن على معجزة الذكاء الإنساني نفسه الذي لم يستنفذ كامل إمكاناته وقدراته الإبداعية، ويراهن على معجزة الطبيعة التي حملت إلينا الوباء وتحمل إلينا الشفاء أيضًا. ما يعني أن المعجزة على فرض وجودها هي مندكة في هذا العالم وجزء من نظامه، ولا يمكنها الخروج منه أو أن تأتي من خارجه، بل تأتي من داخله وعبره.

أما لماذا تتصاعد ادعاءات المعجزة في بيئتنا، فهي برأيي ليست محاولات جادة للشفاء من الوباء، بقدر ما هي جهود ما تزال حثيثة وفاعلة وتقف وراءها سلطات وقوى لها امتدادات مؤسساتية ومجتمعية ودينية ورسوخ ثقافي وقيمي في مجالنا العام والخاص، للإبقاء على حيوية العوالم الوهمية التي تأسرنا بداخلها وتحجب عنا رؤية العالم الفعلي الذي نعيش فيه، وتحول دون رؤية ذواتنا في واقعها الهش والضعيف والمتهافت. هي ليست ادعاءات قوة وثقة، بقدر ما هي استسلام للضعف والخمول والتملص مما يفترض بالإنسان فعله بنفسه، أي التخلي عن مسؤولية نفسه ورميها على غيره والإرتماء في استلاب مريح يفتت الذات الإنسانية ويمحي وجودها لا الفيزيائي أو البيولوجي بل المعنى الذي تسبغه على انوجادها في العالم. أخيراً هي ليست جرأة في تحدي الوباء والاستخفاف بآثاره المؤذية أو القاتلة، بقدر ما هي تسكين خوف الإنسان بتحويله إلى جُبنٍ ووهن في مواجهة مصائره، والسقوط المروع في غيبوبة الطمأنينة التي تطمس كينونة الإنسان وترمي بها في العدم الصامت والعماء المنطفيء.

الكورونا: ماذا تبقى من الموتى؟[28]

2020/3/21

في كتاب بعنوان "حيّ حتى الموت" يعلن بول ريكور: "وحدهم الثكلى من ستتم مواساتهم"، وكأن ريكور يحرجنا بسؤال حول ماهيَّة الموت، لكن من خارج دائرة الموت نفسه؛ فالثكلى هم الباقيات بعد الموت، هم الحاضرون هنا بوصفهم شهودًا على الموت، لتكون وظيفتهم سرد رواية حول الموتى. هم إذن يُبلِّغون رسالة الموتى على ألسنتهم، مثلما كان هرمس رسول الآلهة، فإنّ الثكلى هم رسل الأموات، هم من يربطون بين عالم الأموات وعالم الأحياء.

إنّ هذا الإعلان يجعلنا نستأنف الحديث مرَّة أخرى عن الموت بوصفه انقطاعًا عن الوجود، إلَّا أنَّ الصعوبة التي تواجهنا هو أنَّ الموتى لا يتكلَّمون، هم لا يرون قصص موتاهم، وحدهم الناجون يفعلون ذلك، وحدهم الباقون على قيد الحياة يحدثوننا عن الموت، عن تجارب البقاء والصراع ضدّ الموت. يمكن أن نترجم المشكلة إلى السؤال التالي: كيف يمكن أن نصوغ سرديَّتنا حول الموت؟ هل الموتى يهتمّون بموتهم؟ كيف السبيل للتفكير في الموت، ونحن على قيد الحياة؟ وكيف نفهم جدليَّة الخلود والموت؟

الموت بين الذاكرة والنسيان

إنَّ التفكير في الموت بوصفه نقيضًا للحياة، يجعلنا نتساءل على النحو التالي: ماذا تبقَّى من الموتى؟ وتكون الإجابة المؤقَّتة، إنَّ كل ما تبقَّى منهم هي تجارب "حدثت في زمن سابق"، يرويها أحد الشهود في شكل استحضار للذكريات. ومن الطرافة، أن نعثر في التراث الإغريقيّ على تصوّرٍ حول الذاكرة على أنَّها مرتبطة بالأساس بليثي Léthé؛ إذ نعثر في كتاب تحت عنوان: "ليثي في فن النسيان ونقده"، أن ليثي حسب الميثيولوجيا اليونانيَّة ترمز إلى "نهر في العالم السفلي من شرب منه فقد ذاكرته يقابله نهر يدعى Mnémosyne من شرب منه عادت إليه ذاكرته، وصار عليمًا بكلّ شيء".

يستوجب الحديث عن الذاكرة مباشرة الحديث عن النسيان، إذ إنّ عمليَّة التذكر هي هروب وفرار من حالة النسيان، فتذكّر الموتى هو تحريرهم من دائرة النسيان بما هي غياب وإحضارهم إلى الزمن الحاضر. كلّ الثكلى أو الناجين أو الباقين على قيد الحياة هم حرّاس للذاكرة، هم يؤرشفون ويخزّنون ذكريات موتاهم، هم إذن في حالة صراع دائم ضدَّ النسيان. بهذا المعنى، يصبح النسيان وجهًا من وجوه الموت؛ فمن هم الأموات في حقيقة الأمر؟ هل يكفي أن يتحلّلوا بيولوجيًّا حتّى يكتمل موتهم؟ أم إنّهم يموتون فعليًا، عندما تنقطع علاقتهم بعالمنا الواقعيّ؛ أي عند خروجهم من حقل الذاكرة ودخولهم حقل النسيان؟

[28] موقع مؤمنون بلا حدود

إنَّ استرجاع الذكرى هو أن نحفظ من تمّ دفنهم من الاندثار؛ فمثلما كان هيرودوت وهوميروس يحفظان الذاكرة الإغريقيَّة من النسيان من خلال الأشعار والحكايات عن الإلهة وأنصاف الآلهة والبشر الخارقين، والتي لا تتمثَّل في سرد أحداث وتأريخها فقط، بل إنَّها تصوِّر لنا ذاكرة المدينة ونمط عيش الإغريق كنوع من السرديَّة التي تعمل على خلق تصوّر لما– بعد الموت، يسعى كذلك الإنسان الحديث إلى إيجاد خطاب مناسب يحرّره من العدم من ما بعد الحياة. وفي الوقع، إنَّ الإجابة عن سؤال "ما– بعد" قد وجد أفقين يتمظهر من خلالهما؛ هما الدين والعلم.

الموت في السرديَّة المعاصرة

نحن اليوم، نقف أمام "موت معاصر" يشتغل داخل مجال العلم، ولكنَّه يفرض هيبته وسلطانه على باقي مجالات الحياة الأخرى، بل حتّى إنَّه "يفرض عليها حجرًا صحيًّا". إنَّه موت يعرقل السير الطبيعي للحياة بل يؤجّلها إلى أجلٍ غير مسمى. لم نعد اليوم نتحدَّث عن الموت بالمعنى التقليديّ للكلمة، الموت الميتافيزيقي، حيث يتدخَّل مفهوم القدر والواله في حياة الإنسان وموته، بل توجَّهنا اليوم إلى موت الفيروسات والأوبئة، إلى الجانب الخفيّ واللامرئيّ في العالم، وكأنّ الإنسان أضحى في حربٍ مع عدوٍّ خفيٍّ يزرع الخوف والهلع فيه، لأنَّه ببساطة غير قادر على إحاطته داخل مجاله النظريّ.

في مقالٍ للمفكّر التونسي **فتحي المسكيني** تحت عنوان: "الفلسفة والكورونا: من معارك الجماعة إلى حروب المناعة"، يعلن الكاتب منذ بداية النص، الإعلان التالي: "في سنة 1892، تمّ اكتشاف "الفيروسات" ودخلت الإنسانيَّة تاريخًا جديدًا لمعنى الحياة". إنَّ الدخول إلى عالم الفيروسات يجعلنا صلب سرديَّة أخرى من تاريخ الإنسان، فهي لحظة تُعتبر بمثابة المنقلب أو المنعطف في تاريخ العقل البشريّ وخاصَّة العقل العلميّ بالأساس، فها هي اليوم أصغر المخلوقات المتناهية في الصغر قادرة على إحداث الفوضى، وإثارة البلبلة داخل العالم كلّه، بل ذهبت إلى حدّ إدخاله في نوع من العزلة الإجباريَّة.

ربما يكون **الكورونا هو المقلب الذي سيشرخ تاريخ البشريَّة**، فنحن اليوم نصنَّف بوصفنا، إمَّا مصابين أو بوصفنا ناجين مترقِّبين يملؤهم الخوف والفزع، حتّى إن كتابة التاريخ يمكن أن يؤرّخ لها كما في الثورات "ما قبل الكورونا فيروس أو ما بعد الكورونا فيروس"؛ ونحن نعلم أنَّ كلّ الثورات هي تغيّر جذريّ، ولكن لا نعلم إن كانت إلى الأفضل أم نحو الأسوأ. إنّ الأمر الأكيد هو أنَّه وحده العالِم من يستطيع أن يحدِّثنا عن هذا نوع من "الموت المعاصر"، **فلا الإله ولا رجل الدين ولا الفنان ولا حتَّى الفيلسوف قادرون على الإجابة عن سؤال الأوبئة.**

أشار **كانط** إلى هذا الفصل بين "ما يقدَّم في حدود التجربة الممكنة" و"ما يتجاوز حدود التجربة الممكنة"، وهو فصل بين رجل العلم والفلسفة، بين ما "نعرفه" وما نفكر فيه. إنَّ كلّ الإجابات من نوع لاهوتي ميتافيزيقيّ هي غير كافية، كلّ الإجابات الإستيطيقيَّة للفنان أو الشاعر ليست إلَّا مواساة للغير، وكل تفكير للفيلسوف ربما يكون عرضًا، فلا معنى لأن تفكّر والموت يقرع الأبواب، **نحن لسنا في حاجة إلى الإيمان أو إلى خطب الأنبياء، ولسنا في حاجة إلى الحديث عن**

الجميل والقبيح كموضوع فنيّ، نحن في حاجة إلى "المقاومة"، ولكن ليس بوصفها مقاومة تقليديَّة، أو مقاومة مسلَّحة ضدَّ كيان أو سلطة ما، وإنَّما هي حروب المناعة ومقاومة التعقيم التي يفرضها العلم. وحده اليوم، رجل العلم قادر على تفسير وتحليل وتفكيك ما تمرّ به الإنسانيَّة، في حين تظلّ كل الخطابات الأخرى ثانية وثانويَّة.

لكن هذا لا يعني أن نتوقَّف عن التفكير، فكما دعا **كانط**، كلّ ما لا نستطيع معرفته علينا التفكير فيه، وبما أنَّ الفلسفة هي فنّ طرح الأسئلة، فإنَّه يتبادر إلى ذهننا مسألة الطبيعة الإنسانيَّة في حضور الكورونا؛ إذ في الأزمات والمحن يظهر الإنسان على طبعه، وتُطرح أيضًا مسألة الأخلاق. من هنا يمكن أن نطرح السؤال التالي: هل من الممكن أن يتحوَّل الإنسان عدوًّا لأخيه الإنسان في زمن الكورونا؟ هل الأسبقيَّة للبقاء أم للأخلاق؟ ثم هل من فاعليَّة للخطاب الدينيّ اليوم؟

الكورونا والطبيعة الإنسانيَّة

في مقال للفيلسوف **سلافوي جيجيك** تحت عنوان: ""كورونا" ضربة للرأسماليَّة قد تعيد اختراع الشيوعيَّة"، نعثر على ما يلي: "الانتشار المستمر لجائحة فيروس كورونا شكَّل شرارةً لتفشٍّ هائلٍ للعديد من الأوبئة الإيديولوجيَّة، التي كانت كامنة في مجتمعاتنا: الأخبار الكاذبة، ونظريَّات المؤامرة، وانفجار السلوك العنصريّ، والحاجة للعزل الصحيّ المبرَّرة على أُسس طبيَّة وعلميَّة، لاقت صدًى في الضغط الإيديولوجيّ الداعي لإقامة حدود واضحة، وعزل الأعداء الذين يشكّلون تهديدًا لهويَّتنا". إنّ هذا الإعلان الصارخ هو مناسبة جيِّدة للتفكير مرَّة أخرى في الطبيعة الإنسانيَّة، ولكن ليس كما فعل فيلسوف الأنوار **جون جاك روسو** "فرضيَّة المجتمعات آكلي اللحوم البشرية"، ولكن الطبيعة الإنسانيَّة تحت ضغط الخوف من "فقدان الحياة".

إن أوَّل ما نلاحظه هو حضور الكمّ الهائل من العبارات العنيفة من: "العزل"، "الضغط"، "الحجر الصحي"، "الانفجار"، "الانتشار"، "الغلق"، "الإبادة"، "الضحايا"، "إقامة الحدود"، و"التهديد". كلّها مصطلحات تعبِّر عن الوضع الراهن، وهي تنتمي إلى قاموس "الأوبئة الأيديولوجيَّة"؛ وكما عبَّر عن ذلك **جيجيك**، هي مصطلحات ترسم لنا حربًا أو معركةً أوَّلًا ضدّ الفيروس، وثانيًا ضدَّ المصابين أنفسهم بوصفهم لا ينتمون إلى "النحن" ولا ينتمون إلى "الأغلبيَّة"، بل هم ينتمون إلى الخارج، إلى الآخر الذي يهدّد كياني ووجودي. إنهم ينتمون إلى حقل "الهُم".

إن هذا الأمر يطرح مسألة كيفيَّة التعامل مع المصابين؟ وهذا ما يطرح مشكلًا قانونيًّا على صعيد الدولة المصابة ومشكلًا إنسانيًّا على صعيد الناجي المصاب.

هل على الدولة أن تتعامل مع المصابين على أساس أنَّهم "مرضى"، وبالتالي فهم لا يمثِّلون خطرًا على المجموعة؟ أم عليها أن تتعامل معهم على أساس أنَّهم أعداء يمثِّلون تهديدًا وخطرًا على أمن وسلامة المجموعة؟

إنَّ مصطلحاتٍ من قبيل "الحجر" و"وضع الحدود"، تعبِّر عن درجة استنفارٍ قصوى من قِبل السلطة إلى حدّ أنَّ بعض الدول ذهبت إلى اتّخاذ إجراءات وعقوبات قانونيَّة، على كلّ من لم يمتثِّل للحجر الصحي. بهذا المعنى، يمكن تصنيفهم على أنَّهم "مصابون مخالفون للقانون". إن السلطة لم تتَّخذ موقفًا واضحًا، فهي تعامل المصابين على أساس أنَّهم مرضى، وفي نفس الوقت على أساس أنَّهم تهديد. يبقى المشكل في الأسبقيَّة، هل هم مرضى؟ وبالتالي وجب عزلهم، حتى لا يتحوَّلوا إلى تهديد؟ أم إنَّهم تهديد لذلك وجب عزلهم؟ في إطار ضمان الاستقرار، وليس في إطار العلاج بوصفهم ينتمون إلى المرضى.

على مستوى ثاني، ظهور ما يسمّيه **جيجيك** بالسلوك العنصري، وهذا ما يتعلَّق بعلاقة الأفراد بين بعضهم البعض، ويمكن أن يترجم في عبارات من قبيل "عدم الاقتراب"، "عدم اللمس"، "عدم التقبيل"، "الابتعاد بشكل أمن". كلها مصطلحات تصوّر الوضع الغريب الذي تعيشه البشريَّة إلى حدّ أنَّ الآخر المغاير، قد يصبح تهديدًا لسلامتي لمجرَّد أنَّه قام بالعطس في فضاءٍ عام، بل يمكن أن يتحوَّل مجرد السعال إلى نظرات الاتّهام والدونيَّة، بل إلى حدّ التجريم.

والمستوى الثالث يهم الخطاب الديني؛ إذ **كيف يتعامل رجل الدين مع الوباء؟** لتكون الإجابة الصادرة عن دار الإفتاء هي تأجيل الدخول إلى ديانة معيَّنة بسبب فيروس الكورونا، وإلغاء الرحلات لموسم الحج... من هنا يتحوَّل الخطاب الدينيّ إلى تابع للخطاب العلمي، بعد أن كان يعطي تمثّلات حول البداية والنهاية وحول الأخلاق والمعاملات.

في هذا المستوى، يظهر مدى تفكك وهشاشة الذات الإنسانيَّة عند الأزمات والمخاطر، ولكن طبعًا هذه الأزمات مثلما عبَّرت عن التفكك، فهي أيضًا تُعبِّر عن الوحدة والتماسك، فها هو العالَم موحَّدٌ يحاول الخروج من هذا المأزق؛ فعلى حدّ عبارة **سلافوي جيجيك:** "ولكن ربما سينتشر فيروس أيديولوجيّ آخر أكثر نفعًا، وعلَّنا نصاب به جميعًا (فيروس التفكير بمجتمع بديل، يتخطّى حدود الدولة القوميَّة، مجتمع يحقّق نفسه في أشكال التعاون والتضامن العالميين)".

فيروس الحياة[29]

2020/4/9

ليس "كورونا" سيئًا إلى هذا الحد، فأفعال الإنسان لا تزال أفظع بكثير. خطر الموت من جراء الفيروس لم يتجاوز 2% من الأشخاص الذين أصابهم، بينما خطر الإنسان يطال كلّ المعمورة بما عليها ومن الأبعاد كافَّة. فإذا ما نظرنا إلى الأحداث العالميَّة بشكلٍ موضوعيّ، يُمكننا القول بأنَّ هذا الوباء شكَّل نوعًا من سياسة "الصدمة" الطبيعيَّة، لا الإستراتيجيَّة هذه المرة، فتعدَّلت الكثير من توجّهات الدول السياسيَّة، لا سيما الكبرى منها، بحيث أنَّها إنكفأت إلى الداخل بدلًا من الإهتمام بالخارج.

أمَّا على الصعيد الفرديّ، **بدأ العالم بإعادة الإعتبار مجددًا إلى الخليَّة الأساسيَّة في تكوين المجتمع ألا وهي "الأسرة"**، لا سيما في الغرب الذي فقد الكثير من الشعور بالإنتماء لها، بحيث باتت العائلة "الملجأ" الذي يهرب الشخص إليه ويحتمي به وفيه، وزادت الروابط الأسريَّة متانةً بين أفرادها بعد أن طغت عليها ضرورات العمل وتغيّرات الحياة.

عند الخروج إلى الدائرة الكبرى، لا شكّ بأن **التكافل الاجتماعيّ قد زاد ضمن البيئة الواحدة**، في الحي والشارع لا بل حتّى في نفس المبنى وبين كلّ طبقاته. فرأينا الناس يخرجون إلى الشرفات، ويستمعون إلى الموسيقى، ويشاركون بعضهم بعضًا الرقص والغناء والحجْر. إنّ طبيعة المدن، لا سيما الكبيرة منها، تفتقد إلى الحياة الاجتماعيَّة بالشكل الموسَّع، فالعديد من السكان لا يعرفون القاطنين في الشقّة المجاورة لهم، فجاء هذا الوباء لكي يرمي حجرة في المياه الاجتماعيَّة الراكدة.

بعد الأزمة، من الطبيعي أن يسعى الكل للتعرف إلى جاره الذي تفاعل معه عن بُعد ويذهب ليرى أحبّةً تواصل معهم افتراضيًّا، وسينتظر اللحظة التي يُعلن فيها "فك الأسر" كي ينطلق إلى حياة جديدة لم يعش مثلها من قبل. كانت ذاكرته تختزن ما يرويه له الأهل والأجداد عن أوقات المحن والصعاب، لكن ذلك كله بقي في عالم الخيال. لم يكن يتوقّع بأنّ ما أصاب بلاده قد أصاب بلادًا بعيدة عنه، أو يعيش القلق والرعب نفسه في ذات الوقت، كما يحدث اليوم، وباتت المصائب العالميَّة عاملًا جامعًا للشعوب في المصير المشترك.

إنَّها شريعة الحياة، فالإنسان مخلوق اجتماعيّ بالدرجة الأولى؛ وبالتالي، لن تنفع كلّ محاولات العزل التي تفرضها علينا سيرورة البقاء عبر الوسائل المتعدّدة بخاصة التكنولوجيا، التي يُراد بها أن تحلّ مكان الأشخاص في يومٍ من الأيام لا أن تكون عاملًا مساعدًا فقط. فلقد رأينا بأمّ العين مدى أهميَّة العنصر البشريّ في هذه الأزمة وعدم القدرة على الإستغناء عنه.

[29] موقع سيتا

من هنا، يُطرح عدّة أسئلة: ماذا كان الحال بنا لو لم يكن هناك كادر علاجي بشريّ، من الطبيب إلى الممرض وصولًا إلى المسعف، يعرف الألم ويتفاعل مع الحدث من خلال الشعور الحسي بـ "الآخر"؟ ماذا لو كانت الآلات وحدها هي التي تتحكّم بمصائرنا لا سيما وأنّ طبيعتها الماديَّة تمنعها من أن تبقى معنا حتى النهاية لا بل قبلها بكثير؟ ستنتهي حياتنا عندما تُقدِّم لنا كل الحلول المبرمجة فيها، لكنَّها بالطبع لا تعلم بأنّ للحياة أسرار لا يدركه ذكاءها الإصطناعي.

ومن ملامح الحياة في هذا الوباء تهديده للمسنين والمتعبين صحيًّا، الذي يشكلون الغالبيَّة العظمى من المتوفين إلى حدّ الآن، وليس للأطفال أو صغار السن، وهو ما يُعدّ ناحية إيجابيَّة. لا نقول ذلك إستهتارًا أو عدم إكتراثٍ بهم، فلكلٍّ منّا فيهم عزيز وحبيب. لكن الفكرة هي: ماذا لو كان الفيروس يستهدف الأطفال وصغار السن؟ ماذا لو تمّ القضاء على "بذور" المستقبل؟ بالطبع ستكون النتيجة كارثيَّة.

على الصعيدين العسكريّ والسياسيّ، **إستطاع الفيروس تهديد الجيوش وهزّ العروش**. فلم تسلم منه أعتى آلات القتل على وجه الأرض، ومنها حاملة الطائرات الأمريكيَّة "ثيودور روزفلت" إذ قام قائد سلاح البحريَّة الأمريكيّ **توماس مودلي** بتقديم إستقالته بعد أن تفشّى الوباء ضمن صفوف طاقمها. كذلك، هز عرش "الإمبراطوريَّة التي لا تغيب عنها الشمس" في ولي عهدها **الأمير تشارلز**، ورئيس وزرائها **بوريس جونسون**. فشُلَّت المحرّكات وتعطَّلت السياسة.

لم تُهزم الطبيعة يومًا، فقانونها هو من يفرض نفسه مهما طال الوقت؛ صبورة هي علينا لكن إنتقامها منَّا شديد. كل "ارتكابات" الإنسان بحقها ستُرد إليه أضعافًا مضاعفة وستخرج هي سليمة معافاة، في غضون شهر أو أكثر، إستطاعت المساحات الخضراء المتبقيَّة من خفض نسب التلوّث والانبعاثات حول العالم بشكل لم تستطع "إتفاقيَّة باريس للمناخ" عام 2015، ولا "قمة الأرض" عام 1992، أن تقوم به مجتمعة. على سبيل المثال حسب ما ذكرت قناة الـ (بي.بي.سي)، تراجعت مستويات التلوث في نيويورك بنحو 50% مقارنةً بنفس الفترة من العام الماضي 2019، وانحسرت الانبعاثات في الصين بنسبة 25% في مطلع العام الحالي 2020، وتحسَّنت جودة الهواء في 337 مدينة حول العالم بنسبة 11.4% مقارنةً بنفس الفترة من العام 2019. الأمرالذي يعني أنَّ نسبة ذوبان الجليد ستنخفض، ما يعني انحسار ارتفاع حرارة الأرض، ما سينعكس على مسألة كميَّات الأمطار وغيرها.

لا شكّ بأنّ هناك عمليَّة ما لإعادة ترتيب هذا الكوكب لكن ليس من خلال حدوث المعجزات بل عبر العقل، "الشرع الأعلى"، المتسلح بالعلم. قال المفكر والفيلسوف المصري الراحل، **الدكتور مصطفى محمود**، في الماضي: "لو إنتشر فيروس قاتل في العالم، وأَغلقت الدول حدودها وانعزلت خوفًا من الموت المتنقّل، ستنقسم الأمم بالغالب إلى فئتين؛ فئة تمتلك أدوات المعرفة تعمل ليلًا ونهارًا لاكتشاف العلاج، والفئة الأخرى تنتظر مصيرها المحتوم. وقتها ستفهم المجتمعات أن العلم ليس أداة للترفيه بل وسيلة للنجاة".

من هنا نقول أنّ **التغيير الكونيّ لن يقوم على الخوارق وإنَّما من خلال مواجهة الصعوبات بالعقل الذي خلقه الله في الإنسان وبدَّاه على التوكّل**. إنّها فرصة لاختبار العقول في كلّ المجالات بخاصَّة في مسألة إعادة صياغة العلاقات على كافَّة الصُعد بين الدول وفي المجتمعات. والأسئلة عديدة هنا، منها: لماذا لا يكون الوباء فرصة لإعادة التفكير في علاقات استراتيجيَّة محورها مصير البشريَّة المشترك؟ لماذا لا ننتقل من سياسات الاستعمار والاستغلال إلى إتفاقيَّات الشراكة والمشاركة؟ لماذا لا تتمّ إعادة تشكيل قواعد المجتمع على أساس الفرد لا الربح؟

يتبيَّن بالنظر إلى الحوادث التاريخيَّة، أنَّ وراء كل أزمة عالميَّة كبيرة "مصيبة" جديدة، وذلك نتيجة "الأنا" المحيطة بعقليَّة "التاجر" المستعدّ لبيع كل شيء من أجل الربح بدون أيَّة اعتبارات أخرى. إنَّ الخسائر التي تكبَّدتها الشركات العملاقة في هذه الفترة قد تكون الدافع إلى البحث عن سبُل كثيرة لتعويضها، ومنها الحرب؛ أمَّا كيف ومتى وأين؟ ليس هناك من جواب محدَّد والسبب هو تغيير طبيعة ونمط الحروب.

ختامًا، **إنّ الألم طبعٌ من طباع التكوين نفسه. فكما يُنظر إليه على أنه "حرق للذنوب" دينيًّا، كذلك هو سبب للتطور دنيويًا**. ومن هنا، تبقى الحقيقة الخالصة بأنَّ الحياة هي "روح" الدنيا التي لا تفارقها. قد يُفني الإنسان نفسه، أمَّا الحياة فباقية به أو بدونه.

أزمة كورونا وانعكاساتها على منظومة القيم[30]

2020/4/10

جائحة كورونا (كوفيد-19) -التي اجتاحت العالم واخترقت الحدود والفئات والطبقات- من الوقائع التي ستسجل إلى جانب وقائع أخرى عرفها القرن العشرون من قبيل الحربين العالميتين، وكذا الأزمة الاقتصادية لسنة 1929، وانهيار المعسكر الشرقي، وسقوط جدار برلين، وظهور ما يسمى بالنظام العالمي الجديد الأحادي القطب، وما ترتب على ذلك من حروب قادتها الولايات المتحدة الأميركية في أفغانستان والعراق.

ستكون الجائحة موضوع بحوث ودراسات وندوات وتحاليل علمية لمراكز البحوث ولقادة الفكر الإستراتيجي، من الزوايا الاقتصادية والاجتماعية والنفسية والجيوسياسية، من أجل بيان التحولات المحتملة على النظام العالمي وعلاقات القوة وتوازناتها وانتقالات مركزها، ومنذ الآن بدأت تتناسل القراءات والتحاليل في المستويات المشار إليها.

لكننا في هذا المقال اخترنا أن نثير باختصار بعض الملاحظات حول التحولات الطارئة أو المحتملة لهذه الأزمة على مستوى منظومة القيم بأبعادها المختلفة، وهذه بعضها:

أولًا: العودة القوية للمعتقد الديني: من الطبيعي أن يتعمق الشعور الديني باعتباره شعورا يقوم على الإيمان بوجود قوة إلهية خارقة، يلجأ إليها الإنسان حين يرجع إلى حقيقته ككائن ضعيف، مهما أحس بالتميز والمركزية في الكون. ومع كورونا ينبعث هذا الشعور حتى عند الغافلين أو المنكرين أو المستهترين بالدين، ويتجدد عند المتدينين.

ففي الأزمات -التي تتجاوز قدرة الإنسان وتتحداه- يحس الناس بالحاجة إلى القوة الإلهية المحيطة بكل شيء، ولا يزيد التقدمُ العلمي الإنساني هذه الحقيقةَ إلا تأكيدا. ذلك أن طريقة انتشار كورونا واستخدامه للإنسان، والانتقال عبره متخذا جسمَ الإنسان حاضنا وناقلا؛ يجعله أشد على شعور البشر من الكوارث الطبيعية.

إن الأمر هنا مرتبط بعدوّ مستتر أشد فتكا في هذه الحالة من الكوارث الطبيعية التي طور العلم وسائل تقنية لرصدها وتوقعها، في حين ما زال العلماء -في مختبراتهم العلمية- يبحثون عن أدوية ولقاحات مضادة للفيروس القاتل "كوفيد-19".

غير أن هذه العودة تحمل في طياتها بعض الانزلاقات والمخاطر، في ظل غياب وعي ديني مستنير بحقيقة الدين والعلم في نفس الوقت؛ فالشعور الديني غير المؤطَّر بفهم روح الدين ومقاصده قد يكون كارثة، وهو ما يفسر حالات جماعية من الوجد "الديني" الجماعي التي تتنافى مع أحكام الدين نفسه، ليس فقط فيما يتعلق بكل ما له صلة بحفظ

[30] موقع الجزيرة

النفس، بل أيضًا في الأحكام الناظمة لشعائره التعبدية، من قبيل الدعاء الذي من سننه التضرع خيفة ودون الجهر من القول ومناجاة الله وعدم مناداته بصوت مرتفع، لأننا –كما ورد في الحديث النبوي– لا ننادي أصم أبكم، وإنما ندعو من هو أقرب إلينا من حبل الوريد.

ومن قبيل ذلك إصرارُ بعض المسلمين على عدم ترك صلاة الجماعة والجمعة، وهو أمر من جوهر الدين إذا خيف على النفس من حصول الضرر، حيث إن حفظ النفس مقدم على حفظ الدين في هذه الحالة.

وكذلك تألِّي بعضهم على الله وادّعاؤهم أن هذا الوباء انتشر بسبب المعاصي، وأنه "عقاب" من الله ضد السلطات الصينية بسبب اضطهادها لأقلية مسلمي الإيغور في إقليم تركستان الشرقية.

والواقع أن الفيروس قد أصاب دولا إسلامية كماليزيا، بل إن بعضا من الجيل الأول من المسلمين ممن كانوا على عهد قريب من النبوة ماتوا بسبب الطاعون، كما أن الهدي النبوي كان سبّاقا لإقرار قواعد الحجر الصحي، ونفّذه عمر بن الخطاب حين ابتُلي المسلمون بطاعون عمواس.

ثانيًا: كورونا والسؤال القيمي الأخلاقي: يكشف انتشار فيروس كورونا عن الهاوية التي تقف على سفحها البشرية، كما يقول سيد قطب في مقدمة كتابه "معالم في الطريق"، حيث ورد فيها: "تقف البشرية اليوم على حافة الهاوية، لا بسبب الفناء المعلق على رأسها.. فهذا عارض من أعراض المرض؛ ولكن بسبب إفلاسها في عالم القيم."

وهو ما تجلى في مواقف عدد من المسؤولين الغربيين، ومنهم مثلا الرئيس دونالد ترامب وعدد من الجمهوريين، الذين أكدوا على إعطاء الأولوية للشباب في مقاومة كورونا، وللاقتصاد والحفاظ على فرص الشغل على حساب المسنين؛ حيث أطلقوا شعار: "العلاج أسوأ من المرض"، وهو ما يفسر تأخر الولايات المتحدة في فرض إجراءات الحجر الصحي لأن الكارتيلات الصناعية والمالية والاقتصادية لا تتحمل طويلا مثل هذه الإجراءات.

ثالثًا: إفلاس النظام الرأسمالي وعجز النموذج الديمقراطي الاجتماعي عن التصدي للأزمة: نجحت الصين –على ما يبدو– في مواجهة واحتواء جائحة كورونا، في حين عجزت عن ذلك الرأسمالية في صيغتها الأكثر تطرفا ممثلة بالولايات المتحدة، والأنظمة الديمقراطية الاجتماعية المبنية على الحرية الفردية، والتي يتمرد فيها الفرد –بسبب تكوينه الثقافي– على التحكم السلطوي، مما أدى إلى نوع من التهاون في التعامل مع الجائحة؛ فكانت الكارثة، ولم تستعد السلطة المركزية دورها إلا بعد خراب البصرة؛ كما يقال.

كما تُطرح هنا بشدة إشكالية انهيار منظومات الحماية الصحية والاجتماعية، ونموذج دولة الرفاه الاجتماعي في دول كان يُضرب بها المثل في ذلك؛ حتى إننا لم نعد نميز بين هشاشة تلك المنظومة في هذه الدول ونظائرها بعض دول الجنوب.

وقد اكتشفت دول غربية –متأخرةً وبعد أن نخرها فيروس كورونا– أهمية التضامن العالمي، فجاء اجتماع قمة دول العشرين الافتراضي وتعهدت فيه بضخ خمسة تريليونات دولار، دون أن تصدر قرارات عملية للتعاون أو التضامن مع الدول والشعوب الأكثر فقراً.

رابعًا: انهزام قيم الفردانية وانبعاث قيم التضامن الاجتماعي والإنساني: لقد قامت فلسفة النهضة على إعادة الاعتبار للإنسان في بعده الفردي، وعلى تمجيد العقلانية المجردة التي ترى الإنسانَ الفردَ مقياسا لكل شيء، أما الجماعة والدولة فليستا إلا فضاء لممارسة الفرد لحريته المطلقة ما لم تمس بالآخرين.

غير أن أزمة كورونا أحيت –حتى في المجتمعات المتخمة بفردانية الحداثة– قيم التضامن والتضحية ونكران الذات لدى بعض الفئات المجتمعية، من قبيل الأطباء والممرضين وغيرهم، وربما يكون ذلك بداية لعودة الشعور بالحاجة إلى الانتماء الاجتماعي والتضامن الإنساني العالمي.

فبالقدر الذي كشفت به هذه الجائحة عن إفلاس عدد من الدول التي تقدم نفسها على أنها مهد لقيم الحرية والديمقراطية، بل وعن إفلاس منظوماتها الصحية والاجتماعية التضامنية؛ فإنها كشفت عن وجه آخر من الصورة، وما صور التضامن مع الشعب الإيطالي وإيفاد عدد من الأطباء والمعدات إلا وجه من هذه الصورة المضيئة، هذا فضلا عن صور الكفاح والمرابطة التي أظهرتها الأطقم الطبية وغيرها، إلى درجة تعريض أفرادها أنفسَهم لمخاطرة من درجة عالية.

خامسا: تجسير العلاقة بين المجتمع والدولة وعودة الحياة إلى مؤسسات الوساطة: ينبغي الاعتراف بأنه من السابق لأوانه الجزم النهائي بهذه الخلاصة، غير أن مؤشرات التعامل الشعبي والمجتمعي مع مؤسسات الدولة –بمختلف مستوياتها– تشير على إمكانات واعدة بهذا الخصوص، وهي مرهونة بتعزيز حالة التعبئة الوطنية هذه.

ومن المؤشرات المواقف التي عبرت عنها مكونات سياسية واجتماعية في عدد من الدول بإصدارها خطابات إيجابية، وهي مكونات كانت تصنَّف تقليديا في خانة الرفض، وكان البعض يتوقع أن تنتهز فرصة هذه الجائحة لكي توجه سهام نقدها للدولة والمؤسسات وتشمت في الجميع، وهناك أمل في أن يكون عهد ما بعد جائحة كورونا مختلفا عن عهد ما قبلها، وأن نقول ونحن نتحدث بلغة الذكرى المفزعة: رُبَّ ضارة نافعة.

إن هذه الجائحة مناسبة لاستدعاء كل تقاليد ومخزون القيم الدينية والاجتماعية في مجال التضامن الاجتماعي، وخاصة التضامن الأسري والعائلي والقبلي، فضلا عن تحفيز المواطنين لإخراج الزكاة، ولِمَ لا يتم تفعيل الأشكال الرسمية لجمع وتنظيم توزيع هذه الزكاة، هذا فضلا عن تثمين مبادرات المجتمع الأهلي والسياسي في مجالات التضامن دون هواجس أو حساسيات، وأن يتم كل ذلك في نطاق القانون وبتنسيق وإشراف من السلطات المعنية.

تأمّلات في زمن الوباء: الحقّ في الحياة والبقاء[31]

2020/3/31

قبل نصف قرن، حذّر برتراند راسل وألبرت آينشتاين، من أننا نواجه خياراً «صارماً ومميتاً لا مفرّ منه يتمثّل في السؤال التالي: هل يجب علينا القضاء على البشريّة أم على البشريّة التخلّي عن الحروب؟». ما زال هذا السؤال ملحاً، الآن، مع إضافة مخاطر الكوارث البيئيّة والتلوث والأوبئة والأمراض، وقد عرفنا منها «إيبولا»، «جنون البقر»، «إنفلونزا الخنازير»، «إنفلونزا الطيور»، «كورونا» وغيرها.

ومع انتشار نظام العولمة الذي فرض التكنولوجيا وأنظمة الفساد والرأسمالية المتوحّشة، توسّعت الهوة والفوارق بين الطبقات وبين الدول الغنية والدول الفقيرة، ما وضع العالم أمام تحديات مصيرية كبرى. ولأنّ «المصيبة تجمع»، تجتمع اليوم الدول الفقيرة والدول الغنية لمواجهة تحديات صعبة، ما يطرح سؤالاً حول استمرار الجنس الإنساني نفسه. وهذه المصاعب الوجودية هي كوارث إنسانية وطبيعية وبيئية، نجمت عن سياسة الإنسان تجاه نفسه وتجاه الطبيعة.

اليوم، يقف البشر أمام أهم تحدٍّ في وجود الإنسانية، وهو تحدي البقاء. فمع التغيّرات المناخية الضخمة التي أدّت إلى مشاكل بيئية لا تُعد ولا تحصى، ومع المشاكل الاقتصادية التي يغرق فيها العالم أجمع، وخصوصاً بعد ارتفاع أسعار النفط والغذاء العالمي وانتشار المجاعة في عدد من دول العالم، هل يمكن للإنسان أن يواجه هذه الأخطار، ويبقى على وجه هذه الأرض... أم سيزول؟

ربما يرى البعض في هذا السؤال ضرباً من الخيال، ولكنّه مبني على وقائع وأحداث تهدّد وجود الطبيعة البشرية والكائنات الحية على هذه الأرض. منها:

التغيّرات المناخية

تميّزت ظاهرة التغيّرات المناخية عن معظم المشكلات البيئية الأخرى، بأنها عالمية الطابع، بحيث إنّها تعدّت حدود الدول لتشكل خطورة على العالم أجمع. وقد تمّ التأكد من الازدياد المطّرد في درجات حرارة الهواء السطحي على الكرة الأرضية ككل، بحيث ازداد المتوسط العالمي بمعدل يتراوح من 3،0 حتى 6،0 درجة خلال المئة عام الماضية. وقد أشارت دراسات الهيئة الحكومية الدولية المعنية بالتغيرات المناخية (IPCC) إلى أن هذا الارتفاع المستمر في المتوسط العالمي لدرجة الحرارة، سوف يؤدي إلى مشكلات خطيرة كارتفاع مستوى سطح البحر ما يهدّد بغرق بعض المناطق في العالم، وكذلك التأثير على الموارد المائية والإنتاج المحصولي، بالإضافة إلى انتشار بعض الأمراض.

[31] جريدة الأخبار

من جهة أخرى، أفادت دراسة علمية بأن التغيرات المناخية قد تؤدي إلى انقراض ملايين من الكائنات الحية بحلول عام 2050. وقد أوضح معدو الدراسة، التي نُشرت في دورية «نيتشر»، أنه بعد دراسة مطوّلة لست مناطق في العالم، تبيّن أن ربع الكائنات الحية التي تعيش في البر قد تنقرض، مشيرة إلى أن اتخاذ الإجراءات اللازمة لتقليل نسبة الغازات المسبّبة لظاهرة الاحتباس الحراري، وعلى رأسها ثاني أوكسيد الكربون، قد ينقذ العديد من أنواع الكائنات الحية من الاندثار. من جانبها، أكدت الأمم المتحدة أنّ تلك الظاهرة الخطيرة تهدّد ملايين البشر الذين يعتمدون على الطبيعة للبقاء على قيد الحياة.

ذوبان الثلوج

يبدو أن جليد القطب الشمالي لا يذوب فقط، بل إنه دخل مرحلة الذوبان العظيم، ما يترك تأثيراً خطيراً على العالم كله، ولا بد أن يشغل بال الجميع من الطامعين بالثروات الدفينة إلى الذين لا يعنيهم ما يجري في القطب الشمالي، لأنّ العواقب ستكون كارثية على العالم. وفي هذا السياق، يقول العلماء إنه في العقود الأخيرة بدأ ذوبان جليد في الصيف يتسارع إلى حد مقلق جداً. والمتفائلون من العلماء يخشون أن يختفي الجليد من القطب كلياً، ابتداء من عام 2020. إن السبب الرئيس الذي يُجمع عليه العلماء لهذا الذوبان هو ارتفاع حرارة الأرض، أي التغير المناخي الذي يتسبب به النشاط البشري والناتج أساساً من انبعاث غازات تحصل بوتيرة متسارعة جداً تهدّد مستويات الحياة على الأرض كلّها.

الرأسمالية ودورها

يحذر الكثير من المحلّلين من أن الأزمة المالية العالمية الراهنة قد لا تشبه تماماً الأزمات السابقة. في أواسط القرن الماضي، تنبّأ العديد من الاقتصاديين بأن المستهلكين لن يستطيعوا استيعاب السلع الكثيفة التي تفرزها أدوات إنتاج رأسمالية متطورة. فإذا بالرأسمالية تفاجئهم بإنتاج الرغبات قبل السلع. فهي لم تعط المستهلكين ما يريدون، بل جعلتهم يريدون ما تعطيهم. وهذا كان انقلاباً هائلاً لا مثيل له في التاريخ.

ثم في أوائل التسعينات، ومع بروز العولمة كنظام حياة وإيديولوجيا (برغم أنها ليست شيئاً آخر غير الرأسمالية العالمية بحلّة جديدة)، سرت المقولة بأن الثورة الاجتماعية العالمية آتية بسبب الفروقات الهائلة بين أغنياء وفقراء. الفروقات حدثت، لكن الثورة لم تقع. بدلاً منها، نشأت مراكز رأسمالية ضخمة جديدة في الصين والهند، ستؤسّس لاحقاً لما قد يثبت أنه أكبر تجمّع للطبقات الوسطى في كل الحضارات البشرية.

الجوع من آثارها

في عام 1996، اتفقت «قمة الغذاء» في روما بتصديق 185 دولة من دول العالم، على خفض نسبة جائعي العالم إلى النصف بحلول عام 2015. إلا أنّ هذا الاتفاق واجه صعوبات جمّة في التنفيذ.

يمكن تقسيم جائعي العالم إلى قسمين:

الأول: الجياع غير القادرين على الحصول على الغذاء رغم توفره، إما بسبب عدم توفر القدرة الشرائية (الفقر)، أو بسبب التواجد في أماكن منعزلة جداً.

الثاني: الجياع الذين لا تتوفر لديهم الأغذية من الأساس، وذلك ينطبق على الذين يعانون من المجاعات بسبب الجفاف.

والخطير أن آثار المجاعة ما عادت تقتصر على أفريقيا فقط، بل باتت مبعثرة في كل مكان حتى إنها طاولت بلداناً تُعد من البلدان غير الفقيرة نسبياً، كالمكسيك والفيليبين.

الأزمة الاقتصادية العالمية

في ما يتعلق بالأزمة الاقتصادية الراهنة ، تشهد الولايات المتحدة ـ القوة العالمية العظمى ـ أزمة مالية عنيفة انتقلت عدواها إلى الأسواق المالية لمختلف الدول، وبات علاجها عسيراً. ولم تعد الأزمة الأميركية الحالية جزئية تقتصر على العقارات، بل أصبحت شاملة تؤثر مباشرة على الاستهلاك الفردي الذي يشكل ثلاثة أرباع الاقتصاد الأميركي، وهو بالتالي الأساس الذي ترتكز عليه حسابات معدلات النمو.

ولا تأتي الأزمات المالية من فراغ، بل تتفاعل مع الوضع الاقتصادي الأميركي الكلّي، الذي يعاني من مشاكل خطيرة، في مقدمتها عجز الميزانية واختلال الميزان التجاري وتفاقم المديونية الخاصة والعامة، إضافة إلى الارتفاع المستمر لمؤشرات البطالة والتضخّم والفقر. هذا بالإضافة إلى تداعيات انهيار قيمة العقارات التي أدّت بعد انفجار الفقاعة العقارية إلى تراجع الاستهلاك اليومي وبالتالي إلى ظهور ملامح الكساد.

هذه الأزمات العالمية المنتشرة في كل مكان، عدا عن الحروب والكوارث الطبيعية، تضع الإنسان أمام أسئلة كبيرة عليه أن يجيب عليها وأن يجد لها حلولاً سريعة، فقبل أن يجيب على سؤال: كيف نطوّر حياتنا؟ عليه أن يواجه سؤال: كيف نُبقي عليها؟

وباء «كورونا» سيغيّر العلاقات والمفاهيم والأفكار السائدة في العالم، لكن هل سيغيّر الإنسان سلوكه ووعيه وأولوياته وقيمه؟ التحديات والتحوّلات التي نواجهها، اليوم، سوف تعيد الاعتبار إلى الإنسان أولاً. كان حلمنا تغيير العالم، أصبح همّنا الأول المحافظة على العالم في بيئة نظيفة توفّر الصحة السليمة والتنمية المستدامة والأمان الوجودي. بعد وباء «كورونا»، سيكون مطلبنا الأول الحق في الحياة، وهو بقاء الإنسان على قيد الحياة، ومن ثم ندافع عن حقوقه... وجود الإنسان أولاً، ومن ثم نعمل من أجل تحسين هذا الوجود.

أوبئة نفسية في الأساس.. كيف تغذي جائحة كورونا الكراهية بأميركا؟[32]

2020/4/4

كلما تقرأ أكثر عن الأوبئة، تدرك أنها ظاهرة نفسية في الأساس؛ إذ لم تكن تتعلق بالمصابين بالفيروسات والأمراض فحسب، بل تشكلت عبر سلوك الناس والطرق التي تصرفوا بها.

وفي كتابه "علم نفس الأوبئة"، يرى الأكاديمي الأسترالي المختص في الطب النفسي ستيفن تايلور أن مواسم الأوبئة ترتبط بالعنصرية وإلقاء اللوم على مجموعات معينة من الناس، ويعود ذلك جزئيا "إلى أن البشر قبليون في طبيعتهم."

وفي المقابل، يتم التحكم في الأوبئة والحد من انتشارها عندما يوافق الناس على القيام بأشياء معينة، مثل قواعد النظافة ومكافحة العدوى والامتثال للمسافة الاجتماعية؛ أما إذا رفض الناس –لأسباب نفسية مختلفة– القيام بهذه الأشياء، فإن الوباء سيستمر في الانتشار.

وفي حالات تفشي الأوبئة التاريخية، كانت هناك عنصرية، وشعور بالذعر والقلق الشديد، واندفاع إلى المستشفيات، وأصبح الناس محبطين من العزلة الذاتية وأشكال أخرى من الابتعاد الاجتماعي، ومن الواضح أن علم النفس مهم للغاية في فهم كيفية تعامل الناس مع تهديد العدوى الوبائية، وبالفعل نلاحظ كل هذه الأشياء في جائحة كورونا الحالية.

وإذا كان الحب هو المرض الموازي لوباء الكوليرا في رواية الأديب الكولومبي غابرييل غارسيا ماركيز الشهيرة، فإن الكراهية التي يمارسها الأميركيون البيض العنصريون هي المرض النفسي الموازي لجائحة كورونا .

تفشي الكراهية

وفي تقريره الذي نشره موقع "ميدل إيست آي" البريطاني، قال أستاذ سياسة العرب الحديثة وتاريخ الأفكار في جامعة كولومبيا جوزيف مسعد إن الأميركيين العنصريين –سواء كانوا ليبراليين أو محافظين– يكرهون الأميركيين البيض وغير البيض، إلى جانب غير الأميركيين مهما كان لون بشرتهم. تماما مثلما كرهوا الأميركيين الأصليين عندما غزو بلادهم وقتلوهم وسرقوا أراضيهم، والأميركيين الأفارقة عندما استعبدوهم، والمهاجرين غير البيض والألمان خلال الحرب العالمية الأولى، إلى جانب الأميركيين اليابانيين خلال الحرب العالمية الثانية.

ويضيف التقرير أنه منذ ذلك الوقت، تجلت الكراهية العنصرية التي يمارسها الأميركيون البيض ضد جميع ضحايا الإمبريالية الأميركية؛ بدءا من الهند الصينية وأميركا اللاتينية، وصولا إلى العرب، ثم المسلمين، لتشمل منافسي القوة الأميركية من الروس والصينيين بشكل رئيسي في وقت لاحق.

[32] موقع الجزيرة

ومنذ بداية تفشي جائحة فيروس كورونا في مدينة ووهان الصينية، ورد أن التغريدات العنصرية المعادية للصين زادت بنسبة 900.%

في ظل حملة ترامب العنصرية ضد فيروس كوفيد-19، حذّر مكتب التحقيقات الفدرالي من زيادة جرائم الكراهية ضد الأميركيين الآسيويين، مبلّغا عن "تعرّض ثلاثة أفراد من عائلة أميركية آسيوية -من بينهم طفل يبلغ عامين وآخر ست سنوات- للطعن، وأكّد المتهم أنه طعن الأسرة لأنه اعتقد أنها صينية الأصل، وتنقل عدوى فيروس كورونا للناس."

وإلى جانب "الفيروس الصيني"، يعرف فيروس كورونا بأسماء أخرى داخل أروقة البيت الأبيض؛ منها "إنفلونزا الكونغ". كما ألقى بعض السياسيين والمعلقين العنصريين الأميركيين اللوم على العادات الغذائية الصينية كمصدر لانتقال الفيروس.

لكن لا يأخذ هذا النوع من العنصرية بعين الاعتبار إذا كانت العادات الغذائية الغربية للبيض تسهم في انتشار أمراض مثل جنون البقر في إنجلترا، والإشريكية القولونية في الولايات المتحدة.

في هذا السياق، تساءل الصحفي الأميركي الأفريقي إيلي ميستال عما إذا كان هؤلاء الأميركيون البيض العنصريون -بمن فيهم السيناتور المتعصب جون كورنين، الذي يلقي اللوم على العادات الغذائية في انتشار الفيروس- سيعارضون فكرة الإشارة إلى مرض الإشريكية القولونية باسم "وباء فضلات رعاة البقر الأميركي."

الكراهية الليبرالية

وأشار الكاتب إلى أنه في حال انتقد الديمقراطيون الأميركيون الليبراليون وبعض وسائل الإعلام الأميركية الليبرالية عنصريةَ ترامب المعادية للصين، فإنهم يسهمون بدورهم في إثارة المزيد من الكراهية الليبرالية تجاه الصين وبلدان أخرى مثل كوبا وروسيا وإيران وفنزويلا. وهذا الأمر يذكرنا بالثقافة السياسية والفكرية التي شاعت خلال ذروة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفياتي.

وفي حين أن الكثير من دول العالم تشيد بنجاح الصين في احتواء الفيروس، وسخائها في مساعدة الدول الأخرى التي تعاني من الوباء؛ تنشر وسائل الإعلام الأميركية الليبرالية مقالات حول الشرور التي تقف وراء الدوافع الصينية في تقديم المساعدات للدول، هذا إلى جانب محاولة التشكيك في نجاح الصين في مكافحة الفيروس القاتل، حسب تعبير الكاتب.

ويتابع مسعد أن وزارة الخارجية الأميركية تنشغل بتشويه سمعة الأطباء الكوبيين الذين تم إرسالهم إلى جميع أنحاء العالم لمساعدة البلدان المنكوبة، مثل إيطاليا. كما لا تزال روسيا هدفا للدعاية الأميركية. أما ترامب، الذي لم يتلق من الليبراليين أي ثناء على جهوده، فليس لديه خيار سوى الثناء على نفسه وأدائه خلال فترة الجائحة.

الدول الزائفة

ويقول الكاتب إن الجائحة كشفت عن أن الولايات المتحدة وحلفاءها النيوليبراليين في الاتحاد الأوروبي "مجرد دول زائفة غير قادرة على إنقاذ سكانها من المرض فحسب، بل تسهم أيضًا في تنامي الوفيات والمعاناة جراء السياسات الاقتصادية النيوليبرالية التي تتبعها"، محملا دفاع المفكرين الليبراليين منذ عقود عن الرؤساء النيوليبراليين وسياساتهم المسؤولية عن تدمير دولة الرفاهية الأميركية وقطاعها الصحي .

في الوقت نفسه، وجدت السياسة الإمبريالية الأميركية فرصة أخرى في جائحة فيروس كورونا للتعبير عن كرهها العدواني، وتكثيف جهودها لتدمير أعدائها في إيران والعراق وفنزويلا ونيكاراغوا، وكل ذلك بالتعاون مع وسائل الإعلام الليبرالية، حسب مسعد.

قبل الجائحة وبعدها

في خضم تفشي الجائحة، أصدرت الولايات المتحدة لائحة اتهام ضد الرئيس الفنزويلي المنتخب نيكولاس مادورو ومساعديه، من خلال توجيه تهم ملفقة له تتعلق بإرهاب المخدرات، وعرضت مكافأة للقبض عليهم، كما خصص الكونغرس –الذي تسيطر عليه أغلبية من الديمقراطيين البيض– بعض وقته لتمرير مشروع قانون يسعى للإطاحة بحكومة نيكاراغوا المنتخبة ديمقراطيا، حسب تعبير الأكاديمي بجامعة كولومبيا الأميركية .

وأكد الكاتب أن كراهية إسرائيل للفلسطينيين تتواصل حتى في ظل تفشي فيروس كورونا المستجد، الذي يهدد المناطق المتعاونة التي تديرها السلطة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة المحاصرة من قبل إسرائيل.

وأضاف أن هناك حقيقة واضحة تتمثل في أن الكراهية العنصرية الأميركية البيضاء والعدوان الإمبريالي، ناهيك عن العنصرية الأوروبية والكراهية الاستعمارية، والعنصرية الإسرائيلية تجاه الفلسطينيين؛ كانت قائمة قبل تفشي الجائحة وستستمر في الوقت الحالي وفي المستقبل.

وفي الختام، أوضح الكاتب أن مشاعر الكراهية الرائجة في زمن الكورونا كانت موجودة في أزمان أخرى، ولا تعد الجائحة الحالية سوى مناسبة أخرى لانتشار العنف الإمبريالي والكراهية، حسب تعبيره.

ما بعد كورونا.. سور حديدي بين الأغنياء والفقراء ونظام عالمي مشوش[33]

2020/4/13

في الوقت الذي بدأ فيه العالم يستفيق من صدمة وباء كورونا (كوفيد-19) الصحية، بدأ التفكير ينصرف شيئا فشيئا إلى العواقب الاقتصادية والسياسية لهذه الأزمة التي لم يسبق لها مثيل في العصر الحديث. وفي هذا السياق، استعرضت مجلة لونوفيل أوبسرفاتور الفرنسية آراء كل من آلان مينك، وهو أحد المبشرين بما يسمى"العولمة السعيدة"، ووزير الخارجية الفرنسي السابق هوبير فيدرين، بشأن النتائج المتوقعة لهذه الأزمة.

وفي المقابلة التي أجرتها **سارة دانيال**، بدأ مينك بالحديث عن الركود المتوقع بعد الوباء، قائلا إن الإجراءات التي اتخذتها الدول والبنوك المركزية قوية بشكل مذهل، وإنه لم يكن من الممكن تصورها قبل ثلاثة أشهر. وأوضح مينك وهو مستشار سياسي ورجل أعمال أن أوروبا ستكون لديها خطة إنعاش اقتصادية بمجرد أن تخرج من فترة الصدمة هذه، وسيكون الأمر بسيطا جدا، بحيث ستنفق ما بين 10% و15% من الناتج المحلي الإجمالي، بتمويل من البنك المركزي الأوروبي، وهو ما لم تفعله بعد أزمة عام 2008 في حين استعاد الأميركيون به مسار النمو.

التعامل مع الأزمة

ومن ناحيته، قال فيدرين إن هذه الأزمة غير مسبوقة لأنها المرة الأولى التي تخاف فيها البشرية كلها من الشيء نفسه وفي الوقت ذاته، وستكون لهذا عواقب دائمة، أكثر كثافة وعالمية من أزمة 2008 أو هجمات 11 سبتمبر/أيلول 2001.

وأوضح الوزير أنه يتفق مع مينك في أنها لن تكون مدمرة بالضرورة، على الأقل بالنسبة للبلدان المتقدمة والمنظمة جيدا، مع أن كل شيء سيعتمد على القرارات المتخذة بعد الوباء. وفيما يتعلق بالجهات التي أدارت الأزمة بشكل أفضل، قال فدرين إنه لا يزال من المبكر الحديث عنها، خاصة أنه لا أحد يعرف إلى متى ستستمر الأزمة، ومتى وكيف نخرج من الحجر، وهل سيكون ذلك على مراحل أم سيستغرق وقتا؟

ومع أن الوزير يميل -كما يقول- إلى أن الديمقراطيات لم تكن سيئة للغاية، فهو يعترف بأن سكان الدول الآسيوية أظهروا انضباطا كبيرا، سواء كانوا يعيشون تحت أنظمة استبدادية أم لا، وأوضح أن مسألة النظام السياسي تستحوذ على الأوروبيين لخشيتهم من أن تظهر القوة الصينية تفوقها في إدارة هذه الأزمة. وفي تعليقه على الموضوع نفسه، قال مينك إن الدول الديمقراطية تقبلت إجراءات مذهلة من حيث الحرمان من الحريات، ولم تستحوذ عليها الروح الليبرالية السائدة على الديمقراطيات.

[33] موقع الجزيرة

ولفت النظر إلى أن هناك حديثا عن التضامن الأوروبي وعن النموذج الآسيوي، ولكن لا أحد يتحدث عن الولايات المتحدة، التي تصرفت –حسب رأيه– في هذه الأزمة مثل دولة من العالم الثالث، ليس فقط بسبب موقف الرئيس الأميركي دونالد ترامب المشوش، ولكن لأن عشر ولايات منها حتى اليوم ليس فيها حجر. وعن تجاوب فرنسا مع الوباء، قال مينك إنه لا بد من انتظار أن ينقشع الغبار حتى يتضح ما هو سيئ وما هو جيد من تصرفات الحكومة، إلا أنه "في المجال الاقتصادي الذي أعرفه، رد فعل فرنسا وأوروبا كان جيدا."

ستار حديدي بين الأغنياء والفقراء

وعلى الصعيد الدولي، اتفق الرجلان على أن إعادة فتح حدود أوروبا لن تكون قريبا ولن تكون سهلة ولا فوضوية، وقال مينك إن ستارة من حديد ستضرب بين الأغنياء والفقراء وستكون لها عواقب دائمة وكارثية، ولن تسمح أوروبا لسكان البلدان الفقيرة بالانتقال إليها دون مبرر.

وعند سؤاله هل سيؤدي هذا الوباء إلى تصحيح عيوب العولمة والتمويل المفرط للاقتصاد؟ رد مينك بأن هناك أربعة عوامل للعولمة، فأما العولمة الرقمية فستخرج من الوباء وهي أقوى، وأما العولمة المالية فستظل دون تغيير، كما أن رأس المال سوف يتدفق دائما بحرية كما كان، في حين أن عولمة المنتجات وتنقل الحاويات ستستمر ولكن بطريقة محدودة قليلا، لأن البلدان لا تريد بعد الآن أن تعتمد على منتجات معينة ولا على مصدر واحد للإمداد. أما عولمة البشر، فستكبح بشكل دائم، ولكن العالم الذي يتدفق فيه رأس المال بحرية لن يتغير جذريا، وقد نعود إلى نظام ديمقراطي اجتماعي أكثر، لكن النظام الرأسمالي لن يختفي لأنه لا يوجد بديل.

وفي هذه النقطة، لا يرى فدرين أن الأمور ستعود كما كانت قبل الوباء، ولا أحد يرغب في ذلك، لأن العديد من الأشياء التي يقال إنها "طبيعية" لم تكن كذلك، مشيرا إلى أن الناس أصبحوا مدركين لأخطار العولمة، "أنا أؤمن بعودة معينة إلى الهيكلة الإقليمية للإنتاج لأسباب تتعلق بالسلامة والبيئة."

واتفق الرجلان على أن هذه الأزمة أظهرت الفجوة بين عالم العمل المادي وعالم العمل الرقمي، وإن اختلفا في مكافآتهما، بحيث يرى مينك أن غياب القوى النقابية عن إدارة الأزمة لا يساهم في إعادة تقييم الأجور وتصحيح الخلل، في حين رأى فدرين أن الأزمة أعادت اكتشاف المهن الأساسية والأجور الضعيفة لأمثال الممرضين، وأن عدم تصحيح ذلك سيكون عواقب سياسية.

توازنات جيوسياسية

وفي سياق السؤال عن دور الأزمة في تغيير التوازن الجيوسياسي القائم، قال وزير الخارجية الفرنسي السابق إن العالم اليوم يعيش في فوضى، بين أوروبا المترددة في أن تصبح قوة والصين التي أكدت حضورها وروسيا التي أظهرت أنه من

الخطأ تجاهلها، ولكن الوباء لن يغير بشكل جذري هذه الصورة وإن بدت مهتزة. وأكد الوزير أنه لن يكون هناك حل وسط إستراتيجي بعد الأزمة، ولكن ستكون هناك هدنة مؤقتة بين الولايات المتحدة والصين بسبب تشابك علاقاتهما.

ورغم أن الولايات المتحدة أبدت سأمها من دور شرطي العالم، بشكل بارع مع الرئيس السابق باراك أوباما وبشكل مبتذل مع ترامب، فإن جزءا من العالم لا يزال متشبثا بدور أميركا وقيمها المسيحية، فإن هذا الوباء قضى على آخر تلك الأوهام. وفي هذا الموضوع، أبدى مينك تفاؤله لاعتقاده أن الوباء غير نظرة ألمانيا تجاه الصين على المستويين الكلي والجزئي، وأصبحت تدرك الحاجة إلى منع الصينيين من التسوق في المجال الاقتصادي الأوروبي.

وختم فدرين بأن فكرة إعادة إطلاق الثنائي الفرنسي الألماني غير فعالة، إلا إذا دخل حزب الخضر واقعيا للمشاركة في السلطة بألمانيا، فإن ذلك قد يكون مناسبة لانتعاش جديد.

فضائل كورونا علينا[34]

2020/3/30

رغم الآلام والخوف اللذين يسببهما انتشار فيروس كورونا، وأسئلة الناس المحجوزين في بيوتهم عن عمر الأزمة وإن كانت ستنتهي قريباً، أو ستنتهي أصلاً، يعيد المواطنون في كل مكان اكتشاف حكوماتهم ونخبهم وأنفسهم بكثير من الدهشة والاستغراب. ومع اشتداد الأزمة وقرارات الحجر ومنع التجول وفراغ الشوارع من أصواتها وتوقف الدكاكين والمحلات عن ضجيجها، اكتشف الناس في كثير من الدول حنان حكوماتهم المفرط، وكذبها المفرط أيضًا. فجأة صار بإمكان المواطن ألا يدفع فاتورة الماء والكهرباء، فيما تحذر الحكومة الشركات من قطعها عن البيوت، وصار بإمكان البنوك أن تصبر على سداد القروض، بل وتتبرع للدولة أيضًا، وأصبحت الحكومة توصل الزيت والدقيق إلى البيوت، وتزيد في سرعة الإنترنت مجاناً، وتوزّع الأموال على الفقراء والمحتاجين، وتوقفت فجاة بكائيات الميزانيات المحدودة والنمو المتوقف والخزائن الفارغة والاستثمار المعطّل، وتسابقت كبرى الشركات في موجة تبرع غير مسبوقة للمستشفيات التي كانت تعرف منذ زمان أنها معطلة ولا إمكانات لديها.

ولكن المواطنين يعيدون اكتشاف أنفسهم أيضًا، فقد أصبح المواطن يحترم الطوابير وينتظر دوره بعيداً عمن يسبقه لتفادي الاكتظاظ، وصارت المحلات لا تبيع سلعها إلا بقدر متساوٍ بين الجميع، وشرعت العائلات في تقسيط مؤنها والحد من التبذير، وبقدرة قادر صارت فضلات الخبز تخزّن في الثلاجات لإعادة استخدامها من جديد إذا اقتضى الأمر، وخلت سلات المهملات من أطنان الخبز التي كانت تُلقى فيها يومياً، ومن بقايا الأطعمة الأخرى أيضًا التي كان يتكبّر عليها الأطفال.

هذه بعض فضائل كورونا علينا، فقد عادت العائلات إلى بعضها، وجلست المجتمعات بعضها مع بعض تتسامر ليلاً وتتناقل أخبار الساسة وتفاصيل الأزمة وتطوراتها في كل مكان، ولكنها بقدر ما تتلاصق عاطفياً بقدر ما تتباعد فعلياً، إذ تشهد الأسواق العالمية تنافساً غير مسبوق وضربات تحت الحزام وفوقه وفي كل مكان من أجل الظفر بالمعدات الطبية والصحية، وتشهد البحار سرقة مواد من دولة إلى أخرى. ولولا الشرطة والجيوش المنتشرة في الشوارع لعمّت الفوضى في أكثر من بلد وسقطت أقنعة الحضارة والتمدن عن الجماهير الملتزمة إلى حد الآن بضبط النفس، اختياراً أو اضطراراً، أو أملاً في دواء قد يظهر قريباً ويُنهي الأزمة، ولكنها إرادة الحياة وحرارة الروح كما يقال، ومن يدري فلعلنا نعود إلى الفطرة إذا طال عمر هذه الكارثة. وفي الانتظار يكفينا ما أيقظه فينا كورونا من خصائل جميلة لعلنا نحتفظ بها بعد أن يذهب.

[34] موقع العربي الجديد